

دير القديس أنبا مقار
ببرية شيهيت

التوبة والنسك في الإنجيل

الأب متى المسكين

كتاب: التوبة والنسك في الإنجيل.

المؤلف: الأب متى المسكين.

الطبعة الأولى : ١٩٧٥

الطبعات اللاحقة: ١٩٨٢-٢٠١١

الطبعة السادسة: ٢٠١٥.

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.

الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٤٥٦٢ / ٨١

رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-7320-56-6

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

المحتويات

الباب الأول

التوبة سر إنجيلي... ٥

- ٦ + التوبة سر إنجيلي
- ١٠ + التوبة ممارسة فعلية مستمرة لسر الخلاص
- ١٦ + سر التوبة في اعتبار الله وتديره
- ٢٤ + رسم مبسّط للتوبة في ناموس موسى
- ٣١ + رسم مبسّط للتوبة في العهد الجديد

الباب الثاني

الأعمال التي تليق بالتوبة... ٣٩

الفصل الأول

- ٤٠ ♦ الحَضَ على النسك وأعمال "ضبط الجسد" و"إماتة الأعضاء" في الإنجيل
- ٤٢ ✚ أولاً _ أما من جهة الشيطان:
- ٤٤ ✚ ثانياً _ أما من جهة الجسد:
- ٤٥ ✚ أولاً _ تجاه حرب الشيطان:
- ٤٨ ✚ ثانياً _ تجاه حرب الجسد:
- ✚ النسك في التفسير الكنسي (الإكلسيولوجي) خلع العتيق (إنجيلي).
- ٥٧ ولبس الحديد (سلي)
- ٦١ ✚ النسك في التفسير اللاهوتي

الفصل الثاني

- ♦ المفهوم الروحي للنسك في الإنجيل... ٦٦

الباب الأول

التوبة سرُّ إنجيلي

- ♦ التوبة ممارسة فعلية مستمرة لسر الخلاص.
- ♦ سر التوبة في اعتبار الله وتديره.
- ♦ رسم مبسّط للتوبة في الناموس.
- ♦ رسم مبسّط للتوبة في العهد الجديد.

التوبة سرُّ إنجيلي

التوبة سر من أسرار الكنيسة. ولكن هذا السر يُعتبر في الواقع مدخلاً لجميع الأسرار، إذ لا يمكن أن يتم فعل أي سر في الإنسان إلا إذا كان تائباً إلى الله^(١): «إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون» (لو ١٣: ٣). وإذا نظرنا إلى الحياة المسيحية على أساس الخبرة الروحية والسلوك بمنهج الإنجيل، نجد لها عبارة عن عمل توبة مستمر، أي رجوع متواصل إلى الله، لأن دخول الخطية في كيان الإنسان جعلته ينزع إلى الابتعاد عن الله: «فاختبأ آدم» (تك ٣: ٨) وهو في حالة خشية من الله وخوف لم تكن من طبيعته أصلاً «سمعتُ صوتك في الجنة فخشيتُ» (تك ٣: ١٠)، وذلك بسبب التعدي على وصية الله. ولا يزال التعدي موجوداً ولا يزال الخاطئ يطلب الابتعاد عن الله ويخاف.

المسيح جاء ليرفع حالة الخشية والخوف، ويرد الإنسان إلى الله، وذلك طبعاً برفع الخطية من كيان الإنسان.

رفع الخطية وآثارها المفسدة من طبيعة الإنسان هو عمل الغفران، الذي يتم بفعل إلهي، يستمد قوته من سفك دم المسيح «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١ يو ١: ٧). وهذا هو مضمون سر الفداء والمحبة.

التوبة، إذن، كحالة رجوع إلى الله واطمئنان، هي في الواقع دخول في

(١) انظر كتاب: "الكنيسة والدولة" للأب متى المسكين، الطبعة السابعة ٢٠٠٧، صفحة ١٤.

سر الفداء، وقبول فعل المحبة المستقر في دم المسيح. لذلك صارت التوبة باختصار سرّاً إلهياً.

الرجوع إلى الله لا يمكن أن يتم بقدرة الإنسان وحده: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب» (يو ٦ : ٤٤). وقديماً يقول النبي: «توبّني فأتوب» (إر ٣١ : ١٨).

كذلك فإن الله لا يجذب الإنسان إلا بناءً على سعيه واشتياقه، أي يلزم بالضرورة أن يكون عنصر مشيئة الإنسان فعّالاً وموجوداً في التوبة، لأن الله يطلب الإنسان بدون قسْر ولا تعسّف، إكراماً لحريته: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين» (مت ١١ : ٢٨)! «مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لَا أُخْرِجْهُ خَارِجاً» (يو ٦ : ٣٧)، «إن عطش أحد فليقبل إليّ» (يو ٧ : ٣٧)، «ارجعي أيتها العاصية - اعرفي فقط إثْمك - ارجعوا أيها البنون العصاة» (إر ٣ : ١٢-١٤).

إذن فالتوبة هي تقابل بين مشيئة الله المحبّة، الهادئة، الجاذبة للإنسان الخاطئ بفعل دم المسيح، وبين مشيئة الإنسان المتعب الخائف، ورغبته الجدية في العودة إلى الله.

تقابل مشيئة الله مع مشيئة الخاطئ هو في الواقع انفتاح جديد في الطبيعة البشرية، لكي تقبل أفعال الرحمة والمحبة واللفظ الإلهي، بصورة جدّية يشعر بها الإنسان، ويتأثر بها جداً، ويقف إزاءها حائراً، مفعماً بمشاعر مختلطة معاً من الشكر والعجز والندم والحب والاندھاش، ولا يسعه في النهاية إلا أن يسلم نفسه أسيراً لله إلى الأبد.

أفعال رحمة الله ومحبه ولطفه ليست مجرد مشاعر إلهية تعبّر في طبيعة الإنسان التائب والمنفتح لله لزيارة عابرة، ولكنها أفعال إلهية تُحدث تأثيراً

جوهرياً مستمراً في طبيعة الإنسان، يكون لها نتائج يُستدل منها أنه قد حدث تجديد جذري في طبيعة الإنسان.

وإذ يظهر على الإنسان المتجدد صفات ومواهب روحية أخرى فائقة على الطبيعة البشرية، غير التي كانت فيه، اعتبر الكتاب المقدس هذا التجديد «خليقة جديدة» (٢ كو ٥ : ١٧) روحية للإنسان!

المعمودية ميلاد جديد لروح الإنسان، والتوبة تجديد مستمر لهذا الميلاد الثاني، وذلك للسلوك الدائم حسب الروح.

الإنسان المولود من الروح إذا لم يسلك بالروح، يطغى عليه الجسد، وتسود عليه الخطية، ويموت ثانية كما مات آدم أولاً. وهذه هي صورة الموت الثاني التي أشار إليها سفر الرؤيا (٢٠ : ٦).

أي أن المعمودية، إذا لم تسندها التوبة، تفقد عملها «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدر ككم الظلام» (يو ١٢ : ٣٥).

الميلاد الثاني الذي بالمعمودية، ودوام هذا الميلاد الثاني بالتوبة (التجديد المستمر)، يخص روح الإنسان لا جسده.

الجسد سيكون له ميلاد ثان جديد أيضاً، وذلك في القيامة العامة، لممارسة الخلود «سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء» (في ٣ : ٢١).

أما الميلاد الثاني الذي يتم للإنسان الآن، ويستمر بالتوبة، فهو ميلاد للروح فقط، وهو هو صورة (ختم أو عربون) القيامة الأولى، التي أشار إليها سفر الرؤيا: «مبارك ومقدس مَنْ له نصيب في القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم» (رؤ ٢٠ : ٦)!!

أي أن بالمعمودية والتوبة الدائمة ينال الإنسان قوّة حياة جديدة مستترة، قوّة قيامة حقيقية في كيانه الروحي: «قد قمت مع المسيح» (كو ٣: ١) تؤهّله بالضرورة للقيامة العامة والحياة الآتية: «فالذي أقام المسيح ... سيُحيي أجسادكم المائتة» (رو ٨: ١١)، و«حياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كو ٣: ٣). أي أن كل مَنْ يحصل على قوّة القيامة الأولى الآن، بالمعمودية والتوبة، يصبح له وحده القدرة في القيامة الثانية على أن يأخذ جسداً جديداً "على شبه جسد المسيح" الذي هو بمثابة ميلاد ثاني للجسد.

التوبة إذاً هي سر تجديد ودوام الميلاد الثاني، وهي سر الحصول على قوّة القيامة وعربون حياة الدهر الآتي أيضاً وذلك بالموت المستمر عن العالم، وهي سر عتيد أن ينال به التائب جسداً جديداً ثانياً غير فاسد، وذلك بعدم إطاعة شهوات هذا الجسد الفاني، وإماتة أعضائه التي على الأرض (كولو ٣: ٥-١٠).

التوبة ممارسة فعلية مستمرة لسر الخلاص

رجوع الإنسان الخاطئ إلى الله يبدأ من جهة الإنسان، يحرص الخطية في الشعور، وتسليط نور حق الله والوصية على الضمير، لفرز أعمال الخطية الميتة وميولها واتجاهاتها. ولكن لا تُعتبر التوبة قائمة فعلاً إلا بتوسط من جهة المسيح، وذلك بسكب «روح الحياة» (رو ٨: ٢) في كيان الإنسان، بعمل الدم، ليتم رفع الخطية كطبيعة ميتة ومهيأة للموت، لأن رفع طبيعة الخطية الميتة من كيان الإنسان هو مفهوم سر الخلاص! «وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم» (مت ١: ٢١).

التوبة مرتبطة بالخطية، ورفع طبيعة الخطية مرتبط بالخلاص.

الخلاص يبدأ بتصميم الإنسان على نبذ الخطية والقيام بمحاولة جديدة للعودة إلى الله، ويكمل بتوسط المسيح بسكب روح الحياة في كيان الإنسان، لرفع الخطية بفعل الدم المسفوك. والاتجاه الأرثوذكسي لا ينظر إلى الخلاص كعمل يمكن أن يتم في فترة زمنية محددة، بل يعتبره فعلاً دائماً مستمراً مرتبطاً بالحياة كلها؛ سواء من جهة الإنسان بدوام فحصه لسلوكه ودوام رجوعه إلى الله، أو من جهة المسيح بدوام فعل دمه بالمغفرة والتطهير.

فالخلاص هو إذن تاج أو إكليل حياة مسيحية، ارتبطت بممارسة التوبة على طول المدى: «جاهدتُ الجهاد الحسن، أكملتُ السعي، حفظتُ الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليل البر» (٢ تي ٤: ٧، ٨).

كذلك واضح أيضاً أن الاتجاه الأرثوذكسي يرفض أن يعتبر الخلاص

حالة يمكن أن تصبح منفصلة عن التوبة، لأن السلوك المسيحي لا يمكن أن يستقيم بدون تصحيح مستمر «أقمع جسدي (الآن) وأستعبده حتى بعدما كررْتُ للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١ كو ٩: ٢٧). فإن كان الخلاص هو لبس الثوب الأبيض والقيام مع المسيح، فالتوبة هي غسيل كثير بالضيق والتعب وسعي متواصل بالأنين والألم، لتبييض الثياب في الدم: «هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غُسلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف» (رؤ ٧: ١٤).

ولكن لا يفهم أن الغسيل الكثير بالضيق والتعب والسعي المتواصل بالأنين والألم لتبييض ثياب الإنسان هو جهد إنساني محض أو عمل من طرف واحد، إذ يلزم جداً أن لا نغفل كلمة «في دم الخروف» التي تحصر كل جهد الإنسان في دائرة النعمة، بحيث أن أية محاولة لغسل الثياب وتبييضها بوسيلة أخرى غير دم المسيح يكون عبثاً.

واضح، إذن، أن حياة التوبة لا تقوم على مجرد رجوع مستمر إلى الله من جهة الإنسان، بل وتشمل ضمناً وباستمرار عملاً سرياً إلهياً من جهة الله، وهو رفع الخطية التي يتقدم الخاطئ مُقرّاً ومُعترفاً بها، وذلك بتطهير دم المسيح. أي أنه داخل في صميم حياة التوبة فعل غسل تطهير وتقديس بالدم، وهو الذي يجعل التوبة "سر": «لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١ كو ٦: ١١). فإذا أغفل هذا الفعل الإلهي، الذي هو هبة النعمة، وسخاء عمل الفداء، وقوة الخلاص، تصير التوبة عملية بشرية مجردة فاقدة لمضمون "السر".

معروف قطعاً أن الله يدعو كل إنسان، وكل إنسان يستطيع أن

يستجيب، لو شاء. فإذا صادفت دعوة الله استجابة الإنسان، بدأ في الحال حياة توبة.

دعوة الله، هي الخلاص المجاني المعروض على الإنسان. واستجابة الإنسان، بمثابة باب للدخول في هذه النعمة.

لذلك فحياة التوبة ليست هي مجرد رجوع إرادي إلى الله، بل هي أيضاً قبول دعوة للدخول، دخول في عهد نعمة وحالة خلاص. هذا الدخول ليس محدوداً بزمن، وليس له نهاية، لأن نعمة الله فائقة على الزمان، ولا يمكن استيعاب الإلهيات استيعاباً كلياً، لذلك يظل الإنسان يدخل الحياة الإلهية الجديدة، ويمتد، ويستمر يمتد فيها ما يشاء وما يشاء الله، ومن ذلك صارت حياة التوبة لا تنتهي إلا بالاتحاد بالله!

إذن، يلزم أن نفهم التوبة لا كأنها فترة أو طور من أطوار الحياة، بل نأخذها حياة، حياة مع الله.

هذا يتضح بالأكثر لو علمنا أن كلمة «توبة»، في معناها الأصلي، هي الميطنانيا μετάνοια. والميطنانيا حرفياً هي «تغيير فكر» أو «تحول في الروح».

والكنيسة - على مستوى عملي - تفهمها تجديداً في كيان الإنسان، يوهب للإنسان بعد المعمودية، من قبل الله، بواسطة الاعتراف.

أي أنها عملية ارتقاء مستمرة في طبيعة الإنسان، على أساس الشعور بالخطية والندم عليها، والاعتراف بها، التي هي في الواقع حالات تذلل واتضاع. ومعروف أن الميطنانيا تُعلن بالسجود إلى الله وتغفير الوجه بالتراب، سواء لله أو للناس، كتعبير عن التذلل والانسحاق.

إذن فالتوبة مُطابَقةٌ لعملية لقول الإنجيل: «مَنْ يضع نفسه يرتفع» (لو ١٨ : ١٤). وعلى قدر الاستمرار في الاتضاع، يكون الاستمرار في الارتقاء، وبين الاثنين يكون تغيير مستمر!

فالتوبة عملية تغيير مستمر في كيان الإنسان، إلى أسفل بالإرادة، وإلى فوق بالنعمة. هذا هو المفهوم الحيوي لكلمة ميطانيا. وبذلك تكون التوبة عكس البر الذاتي، الذي هو الاكتفاء أو الشعور بالكفاءة، حيث تتوقف عملية التغيير الداخلي إلى فوق، بسبب عدم الشعور بالحاجة إليها، إذ يظن الإنسان «البار عند نفسه» أنه قائم في حالة نعمة فلا يشعر بلزوم الاتضاع. وهنا تبدأ تنعكس المطابقة الإنجيلية ويصير «كل مَنْ يرفع نفسه يتضع» (لو ١٨ : ١٤)، أي يصير هناك حالة تغيير معاكس، وهبوط، وفقدان روحي مستمر.

هذا في الواقع منهج عملي. وسوف نجد في كتابات الآباء كيف مورست هذه الحقائق عملياً. وعن ذلك يُعلّم مار إسحق:

[التوبة متوافقة لكل وقت ولكل شخص، للخطاة وللصديقين الذين يتطلّعون إلى الخلاص، إذ ليس هناك حدود للكمال، بل إن كمال الذين يشعرون بالكمال هو هو عينه عدم الكمال! وهكذا تكون أعمال التوبة وزمانها مفتقرة إلى تكميل، حتى إلى لحظة الموت!].

هذا المنهج الإنجيلي والأبوي في مفهوم التوبة العملي هو أيضاً مطابق للمفهوم اللاهوتي في معنى الاقتراب إلى الله والاتحاد به، حيث معروف لاهوتياً أن بقدر ما يتحد الإنسان بالله، بقدر ما يشعر بحقارة معرفته وعجزه.

النفس التي لا تمارس التغيير الداخلي بالميطانيا، أي التوبة على أساس الانسحاق لله، لا تدخل في النعمة ولا تدركها، وتكون هذه علامة تحجّر في قلب الإنسان ونذير موت. ومن هنا تظهر خطورة التوبة كعمل حياة أو موت مثيل للمعمودية، بل يوجد من الآباء مَنْ يرى أن التوبة أخطر من المعمودية نفسها. فنحن نقرأ للقديس يوحنا الدرجي^(٢):

[إن ينبوع الدموع بعد المعمودية قد صار أعظم من المعمودية نفسها ولو أن في هذا جرأة في القول].

ولكن نحن نرى أن ليس في كلام القديس يوحنا الدرجي تهويل، لأن التوبة هي ثمرة نعمة المعمودية وتستمد قوتها السرية منها. فالذي عَدِمَ التوبة هو بالتالي عادم المعمودية أيضاً. أي أن التوبة إما تُقيم المعمودية، وإما بعدم التوبة تلغيها. ومن هنا تظهر خطورة التوبة.

ولكن الذي نود أن ننبه ذهن القارئ إليه مبكراً، أن كلمة "ينبوع الدموع" التي تفيد معنى التوبة والتي يستخدمها القديس يوحنا الدرجي باستمرار، وكل ما يشمل معنى البكاء على الخطايا عند الآباء، هو في الواقع "عمل نعمة" وليس جهاداً شخصياً، هو موهبة وليس تدريباً، ويسمىها مار إسحق: "موهبة الدموع"، وهي أيضاً علامة على توبة مثمرة. لذلك فإن الدموع تشير سراً إلى الفرح الحقيقي، والدليل على

(٢) كتاب: "سُلم السماء" للقديس يوحنا الدرجي - الدرجة السابعة.

ذلك قول الرب: «طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون» (لو ٦: ٢١).

لذلك فالدموع المملوءة رجاءً، داخلة ضمن سر التوبة لأنها برهان على دخول التائب إلى النعمة، ورمز وإشارة خفية لبلوغه حالة الفرح الحقيقي!

ومن ذلك نفهم كيف أن الدموع تغسل الخطايا، لا كأنها عمل بشري إرادي، لأن أعظم عمل للإنسان لا يُكفّر عن أصغر خطية، ولكن الدموع تغسل الخطايا لأنها عطية الروح القدس وعمل ظاهر من أعمال النعمة، وهي تكشف عن ابتداء تغلغل قوّة الله في كيانتنا. أي أن الدموع إعلان واضح عن حصول عملية تغيير داخلي فهي برهان سر التوبة وقوتها أيضاً.

ولكن لا يظن أحد أنه يمكن أن تُعطى له دموع توبة، دون أن يكون هناك تكريس للإرادة والمشية، واشتياق دائم للاتجاه بالقلب نحو الله، وهذا عمل يتعلق بحرية الإنسان، أي أن عزم الإنسان على هجران حياة الخطية وتقديس حياته لله بالحب يفتح أمامه باب مواهب كثيرة من ضمنها الدموع. وفي هذا يبحثُ القديس يوحنا الدرجي أن تكون حياة الإنسان التائب (كما في الراهب) حياة التهاب مستمر:

[مَنْ هو إذن الراهب الحكيم المخلص، إلا الذي احتفظ بجرارته من أن تُطفأ، وحتى إلى زمان خروجه لا يكف أن يشعل في قلبه ناراً على نار، ونشاطاً على نشاط، وأشواقاً على أشواق، وغيره فوق غيره].

سر التوبة في اعتبار الله وتدبيره

الله دائماً طرف أساسي وفَعَّال في توبة الإنسان: «هأنذا واقف على الباب وأقرع» (رؤ ٣: ٢٠). نداء الله للخاطيء ودعوته للترائي أمامه جزء هام من تدبير الله منذ البدء «آدم ... أين أنت؟» (تك ٣: ٩).
الله دائماً في حوار مع الخطاة ليجذبهم إلى الخروج من الورطة: «هلم نتحاجج يقول الرب، إن كانت خطاياكم كالقرمز تَبْيِضُ كالثلج» (إش ١: ١٨).

كان لما اغتاز قايين في قلبه على أخيه، ودخلت خطية البغضة قلبه من نحو أخيه لأنه نال نعمة في عيني الرب أكثر منه؛ انكسرت نفسه، وسقط وجهه وفكّر في قتل أخيه؛ أن الرب قابله واقتحم عليه طريق تفكيره في هذا الإثم المريع، ووقف يحذره: «عند الباب خطية رابضة تشتاق إليها وأنت تسود عليها (لو شئت)» (تك ٤: ٧)، وفي نفس الوقت يفتح أمامه طريق التوبة والخروج من المأزق: «لماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفع؟» (تك ٤: ٦ و٧).

أولاً تحذير. ثانياً تأنيب. ثالثاً تشجيع على القيام.

هكذا الله يتعقب الخطية ويطاردها مع الإنسان، وهي لا تزال في الضمير، الرب يدخل دائماً نصيراً مع الإنسان في المعركة ضد الخطية. يقوّي أولاً جانب الرفض عنده بالتحذير والتخويف والإنذار، لذلك فإن الإنسان حينما تدخله المشورة المشثومة باقتراف الخطية وينبري له صوت الله، في الحال تجده يرتجف ويتردد ويغشاه اضطراب ودوار. هذا الصراع

الباطني يتفاوت مقداره، ولكن يستحيل أن تخمد ناره لأن الخطية عنصر غريب على الإنسان.

الخطية لا يمكن أن تسود على الإنسان، إلا إذا انحاز إليها دون صوت الله؛ ولكن حينما يرفض الإنسان مشورة الله المباركة، ويرتد نهائياً عن التحذير، ويتجمّد قلبه، ويتشدد لاقتراف الإثم؛ يتقدم إلى الخطية بقوة ليست من ذاته، لأن الخطية تَهَبّه سلطانها، والحية تنفخ فيه سُمّها، فيتخدّر وينصاع وتمتد يده إلى الإثم في جرأة الشيطان.

ولكن صوت الله لا يكف ولا يزال يرن في الضمير، حتى وبعد اقتراف الخطية. وهو عينه الذي يُنشئ في القلب حالة من الندم والأسف والتوبيخ والمرارة، التي هي بذرة التوبة، خصوصاً بعدما يتحقق الإنسان أنه خُدع، وانتُهك شرفه، وتسجّلت ضده الجريمة.

وبذلك نرى أن صوت الله الذي حدّر وأنذر أولاً قبل السقوط والذي عاد وصار مصدراً للتوبيخ والندم والمرارة، هو نفسه الذي يبدأ يحتاج الخاطئ ويشجعه للتوبة والقيام وتجديد الحياة.

وهكذا نرى أن الإنسان يمكن أن يسود على الخطية حتى ولو خضع لها وسقط في غوايتها، لو أنه انحاز مرة لصوت الله، إما أثناء التحذير قبل السقوط الفعلي فيمتنع، وإما أثناء الندم والتوبيخ فيقوم ويتوب: «ليتك أصغيت لوصاياي، فكان كنهر سلامك، وبرك كلجج البحر» (إش ٤٨: ١٧).

ومن هذا يتبين دور الله الفعّال في توبة الإنسان، الذي يبدأ به في نفس الإنسان مبكراً جداً قبل السقوط، وقبل التورط في الإثم. أليس هذا سرّاً

من أسرار الرحمة الإلهية العاملة في التوبة؟ ومسلك الله تجاه الخطاة يعتمد أساساً على فعل رحمة الله وسخائه، فتتحرك أحشائه حتى قبل بكاء الخاطئ وندامته. فرحمة الله متغلغلة في كيان الإنسان، فاعلة فيه قبل أن يُخطئ، وأثناء ما يُخطئ، وبعدهما يُخطئ: «ويكون أني قبلما يدعون أنا أُجيب، وفيما هم يتكلمون بعد، أنا أسمع» (إش ٦٥ : ٢٤)، «لا تبكي بكاءً ... يتراءف عليك عند صوت صراخك، حينما يسمع يستجيب لك» (إش ٣٠ : ١٩).

فالله لا يحجز رحمته عن الخاطئ إطلاقاً، إن هو رجع إليه، مهما كانت أثقال خطاياه ومهما كان زيغانه. فالله يكيل رحمته بمكيال مجده ويسخو في الغفران، بمقتضى لطفه، ويحب الخطاة بدافع لذته الخصوصية. وفي هذا يقول إشعياء، موضحاً الفارق الشاسع بين مسلك الخطاة تجاه الله ومسلك الله تجاه الخطاة:

+ «استخدمتني بخطاياك وأثعبتني بآثامك. أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها» (إش ٤٣ : ٢٤، ٢٥).

+ «قد مَحَوْتُ كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إليّ لأنني فَدَيْتُكَ» (إش ٤٤ : ٢٢).

+ «من أجل اسمي أَبْطِئُ غضبي، ومن أجل فخري أُمْسِكُ عَنْكَ حَتَّى لَا أَقْطَعَكَ» (إش ٤٨ : ٩).

أما تدبير الله في توبة الإنسان وإنقاذه من ورطة الخطية وعقوبتها، فكانت وسيلتها في العهد القديم متركزة في اتجاهين:

الأول: إنذار الخطاة، وتوبيخهم المستمر على فم الأنبياء، ليكفؤا عن

سلوكهم الرديء.

الثاني: تشجيعهم على العودة، وإعلان رحمة الله، واستعداده للصفح
«أقسم الرب» (مز ١١٠: ٤).

فكانت التوبة قديماً قائمة هكذا: «ارجعوا لثمحي خطاياكم» (أع ٣: ١٩).

ولكن بإعلان التحسُّد الإلهي وتكميل ذبيحة الصليب، اتخذ الرب
الإله موقف المبادرة، وابتدأ هو الخطوة الأولى في طريق توبة الإنسان
الخاطئ، مما جعل توبته أكثر فعالية في إعادة الخاطئ إلى حياة مقدسة،
لأن بالصليب استعلن فعل الرحمة الإلهية مُجسِّماً أمام الخطاة، الذي على
أساسه كان يدعو الخطاة سابقاً بوعود وأقسام، أما الآن فبسفك دم ابن
الله يؤكِّد الله رحمته، ويقدمها مسبقاً، ويبرهن على صدق كل مواعيده
وأقسامه التي أقسم بها أن رجوع الخاطئ عمل من أعمال مشيئته.

الله كان يدعو الخطاة قديماً بكلمة من فم الأنبياء، وهذه كانت
تكفي، لولا جحود الإنسان وثقل أذنيه عن سماع صوت الله وانصداده
بالباطل عن الحق. أما الآن فنرى الرب يسوع، الابن الحبيب لأبيه، قائماً
مذبوحاً على الصليب، ودمه يتكلم في صمت، ويُقسم بحياته المسفوكة في
بلاغة وروعة وأمانة مذهلة: ها خطاياكم قد غُفرت علانية، فتعالوا...
وبذلك صارت التوبة في عهد المسيح هكذا:

لقد غُفِرَتْ لَكُمْ خطاياكم فتعالوا!

وفي هذا المعنى يكلمنا سفر العبرانيين قائلاً: «الله بعدما كلَّم الآباء
بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة، كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه

الذي ... بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب ١ : ١-٣).

ويود الرسول هنا أن يقول إن الله في الأول وَعَدَ، أما الآن فعمل. في الأول تكلّم بفم الأنبياء، أما الآن فتمم ببذل ابنه على الصليب. في الأول وَعَدَ، أما الآن فنفّذ ما وَعَدَ به.

ويشدد رسول المحبة على هذا المعنى قائلاً: «أكتب إليكم أيها الأولاد لأنه قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١ يو ٢ : ١٢).

ولكن بالرغم من الحالة السعيدة التي صارت للإنسان الخاطئ في العهد الجديد، ببذل الله ابنه يسوع المسيح على الصليب فدية عن الخطاة حتى لا يهلك كل مَنْ يُؤمن به؛ إلا أننا لا نريد قط أن نقلّل من قيمة وعد الله في دعوته للخطاة قديماً، لأن وعد الله قديماً لا يقلّ قيمة عن عمله حالياً، وكلمة الله لهم بفم الأنبياء كان لها سلطان المغفرة الكامل كما لها الآن.

ولكن ميزة العهد الجديد هي أن المغفرة صارت حاضرة بدون وعد، كون الصليب هو نفسه تميم وعد، وهو حالة قائمة ذات عمل دائم مستمر، واستعداد تلقائي في الصفح عن كل الخطايا السالفة لكل مَنْ يُؤمن، من أقصى الأرض إلى أدناها «وهو كفّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١ يو ٢ : ٢).

كما أننا في العهد الجديد نرى أن نماذج المسيح لدعوة الخطاة للتوبة تخلو جميعاً من عنصر التوبيخ والتهديد والتأنيب، التي كانت عنصراً أساسياً في دعوة الخطاة قديماً، مما يدل على أنه قد حدث تغيير جوهري

في قضية توبة الخطاة شكلاً وموضوعاً، أولاً: من جهة الشكل، نجد أن الله الداعي إلى التوبة أصبح يحمل صفتين، صفة الديان، وصفة المحامي في نفس الوقت: «مَنْ هو الذي يدين؟ المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا!» (رو ٨: ٣٤)، «الآب... أعطى كل الدينونة للابن» (يو ٥: ٢٢)، «هو حي في كل حين ليشفع في المذنبين» (عب ٧: ٢٥).

من أجل ذلك نرى أن الاتهام والتوبيخ والتأنيب للتوبة، التي كانت عمل الديان، سقطت من تلقاء نفسها؛ لأن الديان أصبح أيضاً هو نفسه الذي يشفع في الخطاة. لأنه معروف أن الديان، إذا لم تكن له صفة الشفاعة عن الخطاة، كان عليه أن يؤنَّب ويوبَّخ ويهْدَد. أما إن كان الديان هو هو الشفيع، فهنا لا يكون محل لا للتأنيب ولا للتوبيخ ولا للتهديد.

وأما من جهة الموضوع، أي من جهة الخاطئ نفسه، فتوبته أصبحت ليست قائمة على أساس احتياجه إلى تبرئة، لأن تبرئة جميع الخطاة قد تمت مرة واحدة بموت المسيح: «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة» (رو ٦: ١٠)، والتبرئة حدثت وتمت للجميع، بينما الجميع رازح تحت الضعف لا يحرك ساكناً «لأن المسيح، إذ كنا بعد ضعفاء، مات في الوقت المعين لأجل الفُجَّار» (رو ٥: ٦). فهنا المسيح الشفيع يشفع لا بالكلام ولا بواسطة استعطاف، وإنما بسفك دمه، أي بآلامه وتحمله لعنة الصليب وتذوقه الموت كاملاً، هذه التي هي كلها عقوبة الخطية بكل نتائجها.

إذن، فعودة الخاطئ وتوبته لم تُعدْ تحتل في العهد الجديد أي توبيخ أو

تأنيب أو ملامة، لأن كل ذلك حملة المسيح مرة واحدة عن الخطاة:

+ «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلواً. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه وبحُبْرِهِ شُفِينَا ... الرب وضع عليه إثم جميعنا... ظَلِمَ أما هو فتذلل ولم يفتح فاه ... ضُرب من أجل ذنب شعبي وجُعِلَ مع الأشرار قبره... على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش» (إش ٥٣: ٤-٩).

لذلك، وهو عالم بالثمن الفادح الذي سَيُغَرِّمُ به عن الخطاة، استطاع أن يقول للمرأة التي أمسكت في الخطيئة: «ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يو ٨: ١١)، هذه التي كانت الشريعة القديمة تأمر برجمها بلا رحمة! والخطاة والأثمة الذين كان الناموس يُحَرِّمُ حتى مجرّد السلام عليهم والاقتراب إليهم، صاروا محبوبين وقريبين جداً لقلب المسيح «هذا يَقْبَلُ خطاة ويأكل معهم» (لو ١٥: ٢)؛ «دخل لبيت عند رجل خاطئ» (لو ١٩: ٧)، «وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه» (لو ١٥: ١). «لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هي، إنها خاطئة» (لو ٧: ٣٩).

واضح، إذن، أنه قد حدث تغير جوهري في اعتبار الله وتدييره، من جهة توبة الإنسان بسبب التجسّد وموت المسيح، إذ جعل طريق التوبة سراً إلهياً ينطق بفضل الله ولطفه.

ولكن أمام هذا الفضل الإلهي ولطف المسيح الذي يجعل طريق التوبة حديثاً، عبارة عن قبول كرامة واستقبال فرح الله، لا يسعنا إلا أن نخترس ونخاف لأنه: «كيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره» (عب ٢:

(٣).

وإذا تعمَّقنا هذا التغير الجوهري في رسم التوبة قديماً وحديثاً، نستطيع أن نفهم لماذا قال المسيح: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان، وهوذا أعظم من يونان ههنا» (لو ١١ : ٣٢).

رسم مبسّط للتوبة في ناموس موسى

أولاً: بالذبيحة:

+ «فإن كان يذنب في شيء من هذه يُقر بما قد أخطأ به، ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيته» (لا ٥ : ٥، ٦).

كان يلزم للخاطئ، لكي تُرفع عنه خطيته فلا يموت ويُقطع من شعب الله، أن يأتي إلى الهيكل ومعه ذبيحته، وأمام الكاهن، ويضع يده عليها، ويُقر بما قد أخطأ به!

وهنا في الواقع رسم عملي خمسة شروط لا يمكن الاستغناء عنها لتكميل التوبة وقبول الصفح، فالتائب:

١ - لا بد أن يقف أمام الله.

٢ - لا يُسمَح له أن يتراءى أمام الله فارغاً فلا بد أن يحمل ذبيحة أمامه كواسطة.

٣ - ولا بد من وجود الكاهن كشاهد ورسول بين طرفين (رمز المسيح) لينقل سؤال الخاطئ إلى الله ، ويوصل صفح الله إلى الخاطئ.

٤ - لا بد من أن يُقر الخاطئ أمام الكاهن معترفاً بما قد أخطأ به، حتى يرشده إلى تكميل تكفير خطاياهِ حسب شروط الناموس، إما برّد أشياء أو التعويض عنها أو غسل الجسد. وكل خطية لها قانون تكفير: «فيُكفّر عنه الكاهن من خطيته التي أخطأ فيُصَفِّح عنه» (لا ٥ : ١٠).

٥ - لا بد أن يضع المعترف يده على رأس ذبيحته أثناء اعترافه لتتنقل

خطيته إلى الذبيحة، فيتبرأ من حكم الموت الذي هو عقاب كل خطية.

وليعلم القارئ أننا أوفينا هذه الشروط الخمسة شرحاً وتوضيحاً في كتابنا: «الكنيسة الخالدة»، ويمكن الرجوع إليه (من صفحة ٤٣-٦٥، الطبعة الخامسة ٢٠٠٢).

ثانياً: بالضمير: صور لوصايا التزم بها الضمير الإنساني لتكسيل التوبة في العهد القديم:

لم تكن أوامر ناموس الموضحة في الشروط الخمسة كقانون التوبة كافية لإراحة ضمير الإنسان من جهة الخطية، وخصوصاً عند ذوي الضمائر الحساسة، والذين تقدّموا في معرفة الرب وكانت لهم معه عشرة ووفاء، كاعتراف بولس الرسول: «لا يمكن من جهة الضمير أن تكمل الذي يخدم» (عب ٩: ٩)، لذلك نقرأ عن ناموس آخر تأمر به الشريعة، يلزم بالصوم والبكاء، ونواح وصراخ، وإحناء الرأس، وتذلّل ولبس مسوح شعر خشن على الجسد العاري، والجلوس على التراب، وتعفير الجبين والرأس، والمشي بالحفاء، وتغطية رأس الرجل، وتمزيق الثياب، والتزام السكوت والاعتكاف.

ولا يظن القارئ أن هذه أمور زائدة أو غير مناسبة، كأنها كانت غير مَرْضِيّة أمام الله، بل على العكس نقرأ بوضوح أنها قُبِلت لدى الله ووجد أصحابها نعمة في عيني الله، وصَفْحاً لم يكن مترقباً قط، كما في حالة أخآب الملك، الذي كان مثلاً للخيانة وقائداً مضلاً للشعب، الذي لما سمع من إيليا بالشر الذي نوى الرب أن يجلبه عليه وعلى بيته، تاب:

«ولما سمع أخآب هذا الكلام شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت، فكان كلام الرب لإيليا التَّشبي قائلًا: هل رأيت كيف اتضع أخآب أمامي. فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه» (١ مل ٢١: ٢٧-٢٩).

هذا هو أخآب الذي قال عنه الكتاب: «ولم يكن كأخآب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب» (١ مل ٢١: ٢٥).

كذلك كانت الاستجابة للتذلل في توبة وصيام الملك واضحة كل الوضوح: «ولما تذلل ارتد عنه غضب الرب» (٢ أي ١٢: ١٢).

وقد أدرك داود النبي في اختبار حياته مع الله، قيمة التذلل الفعلي والاتضاع أمام الله، ومقدار استجابة الله لمشاعر الإنسان القلبية التي يقدمها بدافع حريته للتوبة، بالنسبة لتتيميم حرفة أوامر الناموس: «لو كنتَ تسرُّ بالذبائح لكنتُ الآن أُعطي، ولكنك لا تُسرُّ بالذبائح، فالذبيحة لله روح منسحق، القلب المنكسر والمتواضع أنت لا ترذله» (مز ٥١: ١٧، ١٦). لذلك نجده في يوم بليته يسلك سلوكاً تذلياً عالي المثال، جعل قلب الله وقلب كل مُخلص لله يقف بجواره: «وأما داود فصعد ... باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً ... وكانوا يصعدون وهم يكون ... شمعي بن جيرا يسب ... ويرشق بالحجارة داود ... فقال الملك ... دعوهُ يَسُبْ لأن الرب قال له ... لعل الرب ينظر إلى مذليتي» (٢ صم ١٥، ١٦).

ولكن لئلا يظن أحد أن هذا عقاب كان يفرضه الخاطئ على نفسه، بدافع شعوره بالإثم ويتحمّله ثمناً لخطيته، نقدّم مثل أيوب الصديق الذي

شهد له الله أنه لم يكن في الأرض كلها مثل أيوب، رجل يخاف الله ويحيد عن الشر، وفي الوقت نفسه كان يشعر أيوب ويُصرِّح أنه لا يعتقد أن بليَّته كانت بسبب خطئه قط، وبالرغم من ذلك نسمعه يقول: «خِطْتُ مسحاً على جلدي ودَسَسْتُ في التراب قرني. احمراً وجهي من البكاء» (أي ١٦: ١٥، ١٦).

ولم يكن التذلل والصوم والبكاء ولبس المسوح حالات فردية فقط، بل مارسها الشعب أيضاً وكانت استجابتها سريعة وواضحة للغاية، مثل ما قدَّمه الشعب في السبي أيام أستير الملكة: «كانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم وبكاء ونحيب، وانفرش مُسَحٌّ ورَمَاد لكثيرين» (أس ٤: ٣).

كذلك وجدنا في العهد القديم أمثلة من أفراد عاديين في الشعب، كانوا أمثلة عالية جداً في إحساس ضمائرهم بمسئوليتهم الشخصية عن خطايا الآخرين، فذللوا أنفسهم عن الشعب كله، وقُبِلَتْ مذلّتهم واستُجِيت توبتهم عن الآخرين، وكانوا سبباً في يقظة الشعب! ومن هذه الأمثلة:

عزرا الكاتب الماهر التقى الكامل: «فلما صلى عزرا واعترف وهو باكٍ وساقط أمام بيت الله اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جداً من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكى بكاءً عظيماً» (عز ١٠: ١).
مُردخاي الرجل البار: «ولما عَلِمَ مُردخاي كل ما عُمِلَ (لإبادة الشعب)، شق مُردخاي ثيابه ولبس مسحاً برماد، وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صرخة عظيمة مُرَّة» (أس ٤: ١).

كذلك دانيال الرجل المحبوب: «فوجَّهْتُ وجهي إلى الله السيد طالباً بالصلاة والتضرُّعات، بالصوم والمسح والرماد، وصليت إلى الرب إلهي واعتزفتُ وقلتُ أيها الرب الإله العظيم المهبوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظي وصاياه، أخطأنا وأثْمُنَا وعملنا الشر وتمردنا وجِدْنَا عن وصاياك وعن أحكامك» (دا ٩: ٣-٥).

كذلك يهوديت المرأة الحكيمة التي خلصت شعبها بتذلُّلها: «دخلت يهوديت مخدعها، ثم لبست مسحاً وألقت رماداً على رأسها، وسجدت على وجهها أمام الرب وصرخت بصوت عظيم إلى الرب» (يهو ٩: ١).

أما في مَثَل داود فنرى صورة نادرة المِثَال لإنسان في العهد القديم، يصوم ويكي ويتذلَّل، ويلبس المسوح من أجل أعدائه الذين كانوا يسيئون إليه ويدبُّرون له الشر: «أما أنا ففي مرضهم كان لباسي مسحاً. أذلت بالصوم نفسي ... كأنه قريب، كأنه أخي، كنت أتمشى كَمَنْ يُنوح على أمه، انخبت حزينا، ولكنهم في ظُلُعي (بليَّتي) فرحوا واجتمعوا، اجتمعوا عليَّ شاتمين ولم أعلم، مزَّقوا (سيرتي واسمي) ولم يَكْفُوا» (مز ٣٥: ١٣-١٥).

وهناك صورة للتوبة المقبولة في العهد القديم، تُعتبر نادرة أيضاً. إذ نجد أن الذي تقدَّم بها ليس هو شعب الله، وإنما شعب غريب عن الله، لم يكن لهم وصايا ولا نبوات ولا ناموس ولا ذبائح، وهو شعب نينوى، الذي قدَّمه الكتاب لنا مثلاً حياً لاتساع قلب الله في قبول أي إنسان على وجه الأرض، إذا تاب إليه وتذلَّل أمامه، مهما كانت حالته وبُعده

عن الحق: «لا يعرف شماله من يمينه» (يون ٤ : ١١)، الأمر الذي كان يعرفه يونان عن الله جيداً، مما حدا به إلى أن يرفض تبليغ أهل نينوى بعزم الله على إبادتهم، إذ كان واثقاً أن رجوع الشعب بالتوبة والتذلل إلى الله كفيل بالصفح عنهم، وقد كان. «فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسحاً من كبيرهم إلى صغيرهم، وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسیه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد، ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تُدَقُّ الناس ولا البهائم ... شيئاً» (يون ٣ : ٥-٧)، فصفح الله عن المدينة مما أغاظ يونان جداً. ولا يزال يوجد اليوم من هم مثل يونان النبي الذين لا يوافقون على خلاص وتوبة من ليس مثلهم.

ونقرأ أيضاً في الكتاب عن حالة تذلل وتوبة، يقدمها جماعة من الشعب، تشفعاً عن إنسان في ضيقة وخطر، لقيامه بمهمة لخير الآخرين، كما في حالة أستير حينما أرادت أن تقابل الملك وتحدثه بشأن خلاص شعبها: «اذهب اجمع جميع اليهود الموجودين في شوشن، وصوموا من جهتي ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً وأنا أيضاً وجوّاريّ نصوم كذلك» (أس ٤ : ١٦).

وفي موضع آخر، نقرأ ليوئيل النبي، دعوة حارة يحث بها الكهنة وخدام المذبح، أن يقدموا توبة وتذللاً، بصفتهم مسئولين عن خطايا الشعب التي سببت غضب الله، وذلك بمناسبة قرب مجيء المسيا: «تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا يا خُدّام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خُدّام إلهي ... قدّسوا صوماً. نادوا باعتكاف ... اصرخوا إلى الرب»

(يؤ ١ : ١٣، ١٤).

ولا نظن أن التذلل كان في العهد القديم على مستوى المشيئة الحرة كنamos تستجيب له النفس طوعية بغير قانون، بل كانت له أصوام محددة وكان له قانون وعقوبة ونظام على مستوى جماعي، حددت له الشريعة زماناً معيناً، وأفرد له سفر اللاويين موضعاً رسمياً في العبادة العامة: «وكلم الرب موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة، محفلاً مقدساً يكون لكم تذللون نفوسكم وتقربون وقوداً للرب. عملاً ما لا تعملوا في هذا اليوم عينه لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم. إن كل نفس لا تتذلل في هذا اليوم عينه تُقطع من شعبها ... عملاً ما لا تعملوا فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم. إنه سبت عطلة لكم فتذللون نفوسكم» (لا ٢٣ : ٢٦-٣٢).

وقد حرص الكتاب المقدس أن يوضح في مواضع كثيرة ومتفرقة، استجابة حالات تذلل كانت صادقة، حتى يشجع هذا السلوك موضعاً أثره ونتيجته، وقد سجل الكتاب أن الله يسمع التذلل وينظر إليه ويراه ويذكره:

+ «الرب قد سمع لمذلتك» (تك ١٦ : ١١).

+ «الرب قد نظر إلى مذلتى» (تك ٢٩ : ٣٢).

+ «قد رأيت مذلة شعبي» (خر ٣ : ٧).

- والملاك جبرائيل يؤكد هذا الأمر لدانيال النبي شهادة سماوية صادقة عن قيمة وسرعة استجابة التذلل: «فقال لي (الملاك) لا تخف يا دانيال لأنه من اليوم الأول الذي فيه جعلت قلبك للفهم ولإذلال نفسك قدام إلهك، سُمِعَ كلامك وأنا أتيت لأجل كلامك» (دا ١٠ : ١٢).

رسم مُبَسَّط للتوبة في العهد الجديد

أولاً: بالذبيحة الحقيقية، الكاهن الحقيقي، الاعتراف، الحِل:

الذبايح الدموية التي كان يتقدم بها الخاطئ في العهد القديم إلى هيكل الله للتكفير عن خطاياهم، يقول عنها بولس الرسول إنها «رمز للوقت الحاضر ... لا يمكن من جهة الضمير أن تُكَمَّل الذي يخدم» (عب ٩ : ٩)، ويفسرهما أنها كانت «فرائض جسدية فقط موضوعة إلى وقت الإصلاح» (عب ٩ : ١٠). أما رفع الخطايا فعلاً فكان يتم بإطاعة الوصية فقط: «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب ١٠ : ٤).

أما الذبيحة الحقيقية التي لها سلطان الكفارة عن كل الخطايا والفداء الكلي من عبودية الفساد، فقد استُعلنت لنا في موت المسيح عن الخطاة «وأما المسيح ... ليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً» (عب ٩ : ١١، ١٢).

وعوض الذبايح الكثيرة التي كانت تُقدَّم كل مرة عن كل خاطئ صارت ذبيحة المسيح كافية مرة واحدة عن كل الخطايا لكل الخطاة: «الآن قد أُظهر مرة عند انقضاء الدهور لِيُبْطَل الخطية بذبيحة نفسه» (عب ٩ : ٢٦). وبكل وضوح يقول بولس الرسول إن المسيح «قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين» (عب ٩ : ٢٨).

وإذا كان من المستحيل، حسب الناموس، أن يتزأى الخاطئ أمام الله في العهد القديم، دون أن تكون يده موضوعة على رأس ذبيحته حتى

تُرفع خطاياه عنه وتُنقل إلى الذبيحة التي تموت عوضاً عنه ويحيا هو، هكذا في العهد الجديد، فإنه يستحيل أن يتزأى الخاطئ أمام الله لتُرفع خطاياه بدون تمسكه بدم المسيح، الذي «وضع (الله) عليه إثم جميعنا» (إش ٥٣ : ٦). ومات هو لنحيا نحن ... لقد صار في ذبيحة المسيح تكميل كامل لكل ترتيب الناموس، من جهة تقديم تضحيات وذبائح. وبمجرد تمسك الخاطئ بدم المسيح، فإن هذا كفيل أن يرفع طبيعة الخطية الميتة ونتائجها المميتة من طبيعة الإنسان، ويهبه حياة جديدة في المسيح، حياة بدمه أو في دمه ... حياة إلهية غير مائتة.

أي أنه كما كان على الخاطئ قديماً أن يعترف في هيكل الله، مُقرّاً بذنبه على رأس ذبيحته أمام الكاهن، وبشهادته، لكي تنتقل خطيته عنه إلى ذبيحته، ويُعتقد هو من حكم الموت الذي وقع فيه، كذلك الآن أيضاً نَعترف بخطايانا مُقرّين بها لتقع على كتف المسيح كـ«حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١ : ٢٩)، لتصير محسوبة ضمن الخطايا التي حملها الرب يسوع في جسده على الصليب وأكمل عقوبتها عنا بموته فُنعق من حكم الموت ونتقبل بالتوبة حياة جديدة من لدن الله.

الخطية أنشأت خشية واختباءً وانفتاح العين بالشهوة، والتوبة عودة إلى الثقة والتزائي أمام الله، واغتسال العين بالدموع للنقاوة. وكما أن المعمودية يُستلزم فيها أن يخلع الإنسان ثيابه التي حتمتها الخطية والعين المفتوحة على الخطية، كذلك فالتوبة يُستلزم فيها أن يتعرّى الإنسان من أسرارهِ وخوافيه، ويكشف علله وزلاته وأوجاعه أمام الله والكاهن.

الكاهن كان في العهد القديم رمزاً للمسيح، أما الكاهن في العهد الجديد فهو المسيح، كقول القديس إغناطيوس. فالكاهن لا يستمع إلى

الخطايا كأنه سيوصلها إلى المسيح، كأنما المسيح لا يسمع إلا من الكاهن، بل إن المسيح هو الذي يقبل الاعتراف بنفسه، كما تؤمن الكنيسة وكما يصلي الكاهن: "أقبل إليك اعترافات شعبك."^(٣)

المسيح يسمع بأذن الكاهن، والمسيح غير محتاج إلى توسط الكاهن أو كلامه، الكاهن في وقت الاعتراف تتلاشى شخصيته ولا يسمع الاعتراف لنفسه بل يسمعه للمسيح كالمسيح.

أما الكاهن بشخصه فهو يقف في الهيكل مع الخاطئ كخاطئ مثله، يطلب الحل للخاطئ كخاطئ معه! "عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي، هؤلاء المنحنيين برؤوسهم أمام مجدك المقدس، ارزقنا رحمتك واقطع كل رباطات خطايانا وإن كنا أخطأنا إليك بشيء..."^(٤)

الخاطئ لا يستلم الحِلَّ من شخص الكاهن، ولكن يستلمه من شخص المسيح بفم الكاهن الخاطئ، أما الكاهن في وقت إعطاء الحل فلا ينظر نفسه كالمسيح بل ينظر نفسه كخاطئ، وفي وقت تقبُّل الحِلِّ والمغفرة، يُنظر إلى الكاهن بشخصه كإنسان خاطئ مثله بل يُنظر إليه كالمسيح، ولا يعطى الحِلَّ من نفسه كصاحب حِلٍّ ولكنه يطلب من الله للخاطئ ولنفسه معه دائماً "عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي"^(٥) "عبيدك الذين يخدمونك في هذا اليوم المقدس القمامصة والقسوس والشمامسة والإكليروس وكل الشعب وضعفي، حاللنا"، يطلبه أولاً من فم الثالوث

(٣) سر اعتراف الشعب - القداس الإلهي.

(٤) تحليل الابن يُقال في نهاية صلاة رفع البخور.

(٥) صلاة التحليل، صلوات رفع البخور.

الأقدس، وثانياً من فم الكنيسة كلها بإكليروسها الحاضر والغائب وبشعبها الحاضر والغائب، وثالثاً من فم الاثنى عشر رسولاً، ورابعاً من فم الرسول الخاص المرسل للبلاد المصرية، مرقس الرسول، وخامساً من فم البطريرك ساويرس الأنطاكي الذي تُفي من بلاده بسبب الإيمان والتجأ إلى بلادنا، وسادساً من فم البطريرك ديسقوروس الذي تُفي من بلادنا ومات غريباً في منفاه، وسابعاً من فم البطريرك أثناسيوس الذي حامى عن الإيمان كل حياته ووضع قانونه، وثامناً من فم البطريرك بطرس الشهيد القديس الذي مات عن الإيمان، وتاسعاً البطريرك كيرلس الذي حامى عن الإيمان وثبّت دستوره، وعاشراً من فم باسيليوس أسقف قيسارية الذي شرح الإيمان وعاشه، وحادي عشر من فم غريغوريوس الذي نطق بكلمات إلهية عن الثالوث، وثاني عشر من فم الثلاثمائة والثمانية عشر أسقف المجتمعين من أنحاء العالم في نيقية الذين قرروا الإيمان وقانون البيعة، وثالث عشر من فم المائة والخمسين أسقف المجتمعين من أنحاء العالم في القسطنطينية لتوضيح العقيدة، ورابع عشر من فم المئتين أسقف المجتمعين في أفسس لتوضيح العقيدة والختم عليها، وخامس عشر من فم البطريرك الزماني القائم على البيعة، وأخيراً وآخر الكل من فم الكاهن طالب الحل (ومن فم حقارتي)^(٦).

ثانياً: الضمير: بطلان التكفير عن الخطايا بتعذيب الجسد:

كانت الذبائح المقدّمة عن الخطايا في العهد القديم عاجزة فعلاً عن

(٦) تحليل الخدام.

إراحة ضمير الخاطئ «لا يمكن من جهة الضمير أن تُكْمَل الذي يخدم» (عب ٩: ٩). لذلك كان الخطاة دائماً، حتى وبعد تقديم الذبائح، في حالة ثقل قلب ولوم من جهة الضمير. ولم يستطع دم التيوس والعجول المسفوك أمام أعينهم أن يزيل الأثر الكئيب الذي كانت تتركه الخطية والنجاسة في قلوبهم .

كلُّ ذلك ألجأ ناموس موسي أن يفرض عليهم فرائض إضافية، مثل الصوم والتذلل والبكاء وإحناء الرأس ولبس المسوح والجلوس على التراب «أمثّل هذا يكون صوم اختاره؟ يوماً يذل الإنسان فيه نفسه، يحني كالأسلّة رأسه، ويفرش تحتة مسحاً ورماداً» (إش ٥٨: ٥) حتى يواجه الخاطئ عذاب الضمير بتعذيب الجسد، ويكفر عن تعديه للوصايا بفرض وصايا إضافية على نفسه، لكي يظهر أمام نفسه وأمام الله كإنسان باغض للخطايا، نادم على التعدي، طالب وجه الله.

ولكن مهما كانت الأعمال التعزيبية التي كان يقوم بها الإنسان للتكفير عن خطاياه، فهي لا تخرج عن كونها وسائل جسدية تُعمل بالجسد، للجسد؛ ولكن الخطية تلوّث الروح، تهتك النفس، تدنس القلب، تفضح الضمير، فكيف تُكفّر الأصوام عن خطية النجاسة؟ أو ماذا يصنع التذلل وإحناء الرأس ولبس المسوح والجلوس على التراب، في خطية الكذب على الله، أو إهمال الواجب الذي يتسبب عنه موت ابن أو ابنة أو هلاك خراف الله؟

لذلك صارت كل الأعمال الناموسية التي أكملها شعب الله قديماً، مع كل الفرائض والقوانين التعزيبية التي فرضها الأنبياء وقادة الشعب على أنفسهم، عاجزة عن رفع أثر الخطية من النفس البشرية وتطمين قلب

الخاطئ وإراحة ضميره، لأنها كانت أعمالاً وفرائض جسدية: «موضوعه إلى وقت الإصلاح» (عب ٩: ١٠)، «تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية» (عب ١٠: ١١)، «لأن دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنحسين يقدس إلى طهارة الجسد» (عب ٩: ١٣). وهكذا ظل الخاطئ في حاجة ماسة إلى عمل روحي فائق، يتغلغل روحه، ويشفي نفسه، ويجدد قلبه، وينعش ويفرح ضميره .

لقد عمل الخاطئ في العهد القديم كل ما يمكن عمله للتخلص من خطيته، وجاهد إلى أقصى غاية الجهد البشري لرفع أثر الخطية من نفسه وضميره، ولكنه فشل وفشل نهائياً عن بلوغ ما كان يتمناه: «لم يستطع أباًؤنا ولا نحن أن نحمله» (كما اعترف بطرس الرسول في مجمع أورشليم الأول: أع ١٥: ١٠)، لماذا؟ لأنه اعتمد على أعمال جسدية، التي يقول عنها بولس الرسول بوضوح: «حسب وصايا وتعاليم الناس التي لها حكاية حكمة بعبادة نافلة وتواضع وقهر الجسد، ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية» (كو ٢: ٢٣، ٢٢).

أما الآن، فشكراً لله من أجل يسوع المسيح، لأن دمه الإلهي المسفوك يعمل روحياً فينا نحن الخطاة: «بحسب قوة حياة لا تزول» (عب ٧: ١٦). بعمل إلهي سري يتغلغل كل الكيان الإنساني حتى الأعماق، حتى مفارق النفس والروح، إلى المخاخ والمفاصل ونيات القلب.

وهذا الضمير الإنساني الملطخ بشعور الخطية، المعذب بالإحساس بالذنب، الذي مزقه الندم وزاده الفشل، من جراء التكفير بالمحاولات الجسدية، تمزيقاً فوق تمزيق، الآن يدخله عنصر شافي جديد، عنصر إلهي غير جسدي، غير منظور، ينفخ فيه روح حياة، ويعطيه غفراناً أبدياً

وسلاماً: «دم المسيح، الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله بلا عيب يُطهّر
ضماثركم» (عب ٩: ١٤)!

الآن، لم يعد للتائبين الذين يتقدّمون إلى الله متمسكين بدم المسيح،
بجمال أن يتبقى لهم شعور بالذنب وقلق وكآبة في الضمير، إذ يقول
الكتاب: «وهم مطهّرون مرة لا يكون لهم أيضاً ضمير خطايا» (عب
١٠: ٢).

فأي شعور بالذنب، وأي إحساس بالقلق في الضمير من جراء الخطايا
السالفة التي عفى عنها الله نهائياً كوعده: «لأنني أكون صفوحاً عن
آثامهم، ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فيما بعد» (عب ٨: ١٢)، إن
أي شعور مثل هذا، يُعتبر انتقاصاً من مقدرة المسيح على التطهير الكلّي
«إلى التمام»، وتشككاً في وعد الله. ونحن نعلم علم اليقين، بشهادة كلمة
الله القاطعة، أن المسيح «يقدر أن يُخلّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدّمون
به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم» (عب ٧: ٢٥)!!

البَابُ الثَّانِي

النسك في الإنجيل الأعمال التي تليق بالتوبة

الفصل الأول: الحضُّ على النسك وأعمال "ضبط
الجسد" و"إماتة الأعضاء"، في الإنجيل.
الفصل الثاني: المفهوم الروحي للنسك في الإنجيل.

البَطْرِيْكَانُ الْكَلْبَانِ

الحضّ على النّسك وأعمال "ضبط الجسد"

"إماتة الأعضاء" في الإنجيل

المسيحي إنسان مُحارب:

الكتاب المقدس يضع الحياة المسيحية كلها في قالب نسكي، معتبراً أن الإنسان بدخوله الإيمان المسيحي يصير في الحال جندياً ليسوع المسيح، وينطبق عليه كل مواصفات وواجبات وحقوق الجنديّة. إذ أن إعلان الإيمان بالمسيح هو نفسه إعلان حالة حرب ضد الشيطان، لأن المسيح جاء لينقّض أعمال الشيطان: «لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقّض أعمال إبليس» (١ يو ٣: ٨)، ويُنقذ المأسورين تحت سلطانه في الظلام «كي يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي (بالمسيح) غفران الخطايا ونصيياً مع المقدّسين» (أع ٢٦: ١٨).

المسيحي يحارب لأن المسيح غلبَ:

المسيح دخل أولاً في الحرب مع الشيطان في مواقع كثيرة بعضها نعرفه وبعضها نجهله، ولكن أهمها هي موقعة الصليب التي فيها ظفر المسيح بالعدو وهزمه، إذ جعل جسده المقدس ذبيحة حاملة لكل خطايا العالم. واشترك الشيطان في تزيف قضية الموت، دون أن يعلم أن يموت المسيح

قد رُفعت الخطية، فرُفعت الحِجَّة من يد الشيطان ضد العالم والناس، وأُسقطت الدعوى من يده.

+ «إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض، الذي كان ضدَّ لنا، وقد رفعه من الوسط مُسَمِّراً إياه بالصليب. إذ جرَّد الرياسات والسلطين أَشْهَرَهُمْ جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب)» (كولو ٢: ١٤، ١٥).

المسيح غلب الشيطان فصار الشيطان خصماً لكل مسيحي:
وهكذا أصبح كل مَنْ يؤمن بالمسيح وينال سر الصليب والجسد المقدس، خصماً للشيطان المهزوم من المسيح. وبالرغم من أن الإنسان يكون قد تحرر من سلطان الشيطان، وأخذ بواسطة الجسد المقدس عربون الغلبة والنصرة عليه، إلا أن الكتاب المقدس ينص أنه لا تزال هناك فرصة للشيطان أن يملك بالخطية مرة أخرى في أجسادنا التي ماتت بواسطة الصليب عن الخطية، والتي حررها المسيح من الخطايا السالفة (بالمغفرة بدمه)، حتى يستعبدنا الشيطان ثانية تحت سلطانه، وذلك فقط إذا أطعنا مشورته أو تخَلَّينا عن المسيح، «احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذاً لا تَمْلِكَنَّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته ... فإن الخطية لن تسودكم» (رو ٦: ١١-١٤).

الخطية تستر و سلطانها:

وهنا يوضَّح الكتاب المقدس أن الخطية ليس لها سلطان علينا كالأول، ولكن إذا أطعناها بإرادتنا فإنها تعود وتملك علينا. وهكذا يبدأ مفهوم

حياة النسك في الكتاب المقدس. فمن جهة، الحرب مُعلنة علينا من خصم عنيد، وسلاحه هو الخطية التي بها يستطيع أن يسلسل الإرادة ويجر النفوس إلى الظلمة والموت؛ ومن جهة أخرى، ميدان الحرب مكشوف وهو الجسد الذي له بالخطية علاقة قديمة، وقد استوطنت فيه واعتادها فاستعبدته وتسلطت عليه .

لذلك، نسمع في الكتاب المقدس تحذيرات متكررة أن الحرب قائمة من الطرفين، أولاً من الشيطان، وثانياً من الجسد، وكل منهما منجذب إلى الآخر، والخطر كامن في الطرفين؛ فمن جهة، مطلوب أن نحذر الشيطان نفسه؛ ومن جهة، مطلوب أن نحذر الجسد الذي فينا.

خصان عنيدان متعاونان ضد الإنسان:

أولاً - أما من جهة الشيطان:

فالكتاب المقدس يصفه بخصم مكر مخادع، يتشكل ويتكون ويتنهرز الفرص ويختار المناسبات ويمهد لها، ويفاجئ ويباغت مستخدماً كل أسلحة الهجوم والغدر.

(أ) يصفه الكتاب تارة بصورة وحش مُنقض «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتصقاً مَنْ يبتلعه هو، فقاوموه راسخين في الإيمان» (١ بط ٥ : ٨، ٩)، وغالب الظن، يكون الشيطان هنا بمثابة روح غضب ينفثها في قلب الإنسان، مع عداوة وانتقام، أو ظلم أو افتراء أو قساوة أو سلب.

(ب) وتارة يصفه بصورة روح خبيث يتسلل داخل القلب «فبعد

اللقمة دخله الشيطان» (يو ١٣ : ٢٧). وغالب الظن، يكون هنا كروح خبث وخديعة وخيانة وكذب ورياء ونميمة وحسد وتحريض.

(ج) كما يصفه بفكرة تطغى على العقل «لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجعل أفكاره» (٢ كو ٢ : ١١). وهنا يكون بمثابة روح ضلالة وكبرياء وتعليم كاذب، وتحزُّب وتمسُّك بالرأي الخاطئ، والمغالاة واليأس وتصور الشر والتجديف.

(د) كما يصفه الكتاب بالقدرة على التشكُّل بملاك نور: «ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خُدَّامه أيضاً يغيِّرون شكلهم كخدام للسر» (٢ كو ١١ : ١٤، ١٥). وهنا قدرة الشيطان على تزيف روح الخدمة والرعاية، مستخدماً الشكل المحترم والزي المقدَّس والألقاب المجلَّة والصوت الهادئ والكلمات الروحية والآيات الكريمة.

(هـ) كما يصفه الكتاب بملاك مؤذي يضرب الجسد ويُمرضه «أُعطيْتُ شوكة في الجسد، ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع» (٢ كو ١٢ : ٧). وهنا يظهر بموقفه الذي ظهر فيه مع أيوب، كحاسد للذين يكرِّسون حياتهم للطريق المقدس واختيار الحياة التأملية.

كما يذكر الكتاب كيف عقد لسان الأخرس وأصمَّ أذنيه وآذى عقله، وأقعد إنساناً ثمانين وثلاثين سنة، ويَسَّ ذراع آخر، وأحنى ظهر امرأة، وصَرََعَ آخرين، وسكن كجماعة من سبعة شياطين في امرأة، وعدَّب كثيرين بأنواع لا حصر لها من الأتعاب والأمراض والمضايقات. وكل هذه الحروب يذكرها الكتاب لندرك مقدار العداوة المتأصلة في الشيطان من جهتنا، حتى لا نستهيئ بشره أو نطمئن لمشورات المهلكة.

ويكفي شهادة الرب ضده: «ذاك كان قتلاً للناس من البدء ... كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨ : ٤٤).

ثانياً - أما من جرمة الجسد:

فالكتاب المقدس يعتبره بوضوح منتهى الوضوح، أنه إذا لم يُضبط يكون خصماً عنيداً للإنسان أشر من عشرة أعداء خارجين، وكل عضو فيه يصير مصدراً لألف خطية .

فاللسان يصفه الكتاب هكذا:

+ «فاللسان نار، عالم الإثم. هكذا جعل في أعضائنا اللسان الذي يدنس الجسم كله ويضرم دائرة الكون، ويضرم من جهنم. لأن كل طبع للوحوش والطيور والزحافات والبحريات يُذلّل للطبع البشري، وأما اللسان فلا يستطيع أحد من الناس أن يذللّه. هو شر لا يُضبط، مملوء سمّاً مميتاً. به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين تكوّنوا على شبه الله» (يع ٣ : ٦-٩).

والعين يصفها الكتاب هكذا:

+ «إن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً» (مت ٢٣ : ٦).

والقلب يصفه الكتاب هكذا:

+ «القلب أخدع من كل شيء، وهو نجيس من يعرفه» (إر ١٧ : ٩).

أما بقية الأعضاء فيصفها الكتاب أنها مَرْتَع خصب للخطية:
+ «فإنني أعلم أنه ليس ساكن فيّ، أي في جسدي، شيء صالح...
أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس
الخطية الكائن في أعضائي» (رو ٧ : ١٨، ٢٣).
وأخيراً، يختم الكتاب هذا كله بقوله:

+ «ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت»
(رو ٧ : ٢٤)!!

خطة الخلاص من سلطان الشيطان والجسد:

هذه هي الصورة الصادقة التي يرسمها الكتاب المقدس على مدى
صفحاته للإنسان، وهو واقع بين خصمين عنيدين: الشيطان والجسد.
ومنها ينطلق الكتاب ليرسم أمام الإنسان خطة الخلاص ووسيلة النجاة
والنصرة الكاملة الأكيدة. ويحددها باتجاهين واضحين يشكّلان الحياة
المسيحية النموذجية في منهجها النسكي المتكامل.

أولاً: تجاه حرب الشيطان:

الخلاص بأسلحة غير بشرية، النسك السلبي:

فأول وقبل كل شيء يضع الكتاب آية القمة أمام عين كل قارئ
وهي: «وهم غلبوه بدم الخروف»، «وبكلمة شهادتهم» (رؤ ١٢ :
١١).

إذن فبالرغم من أن الحرب حربنا، إلا أننا نحن لا نحارب بأنفسنا،
أسلحتنا ليست منا، شكراً لله، دم المسيح سلاحنا، والشهادة لإسمه

المخوف هي نصرتنا.

الكتاب يمثل المحارب المسيحي متقلداً أسلحة ليست بشرية، ولا هي من عمل إنسان، ولا تصلح لمحاربة إنسان. فالحَقَّوَان عليهما مِنْطَقَة «الحق»، والذراع عليه درع «البر»، وفوق الجسد كله «ترس الإيمان» الذي يصلح لإطفاء جميع سهام الشرير الملتهبة، وعلى الرأس خوذة «الخلاص»، وفي اليد سيف «الروح الذي هو كلمة الله»، وأما فن الحرب نفسه من جهة التقدم والتأخر والحركة والعمل، فيلخصه الكتاب في حركة واحدة قلبية: «مُصَلِّين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح» (أف ٦: ١٠-١٨).

هذه الأسلحة لو دققنا النظر فيها نجدها كلها مصنوعة من دم المسيح، ولا تعتمد قوتها وفعلها ورعبها بالنسبة للعدو على مقدرتنا الشخصية، ولا على جهدنا الذاتي أو قداستنا أو برنا أو تقوانا أو أعمالنا؛ جسدية كانت أم روحية، لأنها كلها أسلحة غير بشرية بالمرة، وإنما تعتمد على كونها أسلحة المسيح بشخصه، ونحن نستمدّها منه رأساً في كل لحظة وفي كل مناسبة وعند كل ضيقة أو ضرورة، وبقدر ما تكون مستمدة منه، أو بالحري ممسوكة معه، وكأنه يحارب بها معنا، بقدر ما نغلب بها.

فسلاح «الحق» هو شخص يسوع المسيح نفسه. فتصور لو أن المسيح يحارب معنا كيف تكون النصرة؟ أي الثقة واليقين به وبوجوده. وسلاح «البر» هو «بر الله» الذي ظهر بدون الناموس «بر الله بالإيمان بيسوع المسيح» (رو ٣: ٢٢).

وسلاح "إنجيل السلام" هو كلمة المصالحة التي صالحنها بها المسيح مع أبيه فصرنا في سلام مع الله (رو ٥ : ١، ٢؛ ٢ كو ٥ : ١٩، ١٨).

وسلاح "الإيمان" هو عطية الله وهذا ليس منكم (أف ٢ : ٨)، الذي به إذ نؤمن بالله نغلب.

وسلاح "الخلاص" هو الخلاص الذي تم مجاناً بسفك دم المسيح «بالنعمة أنتم مخلصون» (أف ٢ : ٥)، «متبررين مجاناً بنعمته» (رو ٣ : ٢٤).

وسلاح "سيف الروح" هو كلمة الله التي هي أمضى من كل سيف ذي حدين، وهي قوية في حد ذاتها وفعّالة (عب ٤ : ١٢).

والكتاب ينص على أن المحارب المسيحي عندما يتقلد أسلحة المسيح المستمدة منه شخصياً ويحارب بها في حضرته، فنصرته مؤكدة، لأن الكتاب يقول إن أسلحتنا ليست جسدية، إنما روحية، والأسلحة الروحية يستحيل أن تفشل.

+ «لأننا وإن كنا نسلك في الجسد لسنا حسب الجسد نحارب، إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون، هادمين ظنوناً وكل عُلوٍّ يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢ كو ١٠ : ٣-٥).

وبذلك يقدم الإنجيل النصف الأول من المنهج النسكي: وهو التقلد بأسلحة روحية خالصة، نستمدّها من المسيح وبواسطته مجاناً، لمحاربة العدو الذي يفوق قوتنا البشرية على وجه العموم. وهذا هو العمل الروحي السليبي، أي الذي نكتسبه من الله دون جهد ذاتي من أنفسنا. وبالتمرين على هذه الأسلحة، يستطيع الجندي الأمين الصالح، أن يشهر

السلاح الروحي المناسب في حينه، ويرد هجمات العدو الظاهرة سواء كانت في الفكر أو القلب أو الجسد.

أما الهجمات الخفية، فالصلاة المتواترة تفعل فعلها، حيث تسهر النعمة على الإنسان لتردّ عنه شروراً وفخاخاً ومحنّاً كثيرة، يدبرها العدو وتفسدها النعمة دون أن ندري عنها شيئاً.

وكتتام لهذه المعونة الإلهية المجانية التي صارت لنا برنا يسوع المسيح، يقرر الكتاب المقدس أن الله يعمل أيضاً بنفسه معنا بصفة مؤكدة، ليضع حداً نهائياً سريعاً لهذه الحرب في صفنا: «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً» (رو ١٦: ٢٠)

ثانياً: تجاه حرب الجسد:

النسك الإيجابي: الجهد الذاتي بالإرادة الحرة:

في الكتاب، نجد أن الرب بنفسه هو الذي وضع الحجر الأساسي في بناء المنهج التجريدي النسكي، القائم على ضبط الجسد بالجهد الذاتي والإرادة الحاسمة.

هي كلمات من نور: «إن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلقَى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن أعثرتك عينك، فاقطعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تُلقَى في جهنم النار ولك عينان» (مت ١٨: ٩، ٨).

بهذه الكلمات يكون المسيح قد رفع المنهج النسكي إلى أعلى درجة من استخدام الجهد الذاتي بالإرادة الحرة القاطعة، دون أي ممانعة، حتى

لا يطلب حلاً وسطاً أو فدية! حيث جعل المسيح الخصومة بين الإنسان والعثرة المؤدية إلى الخطية والهلاك، تبلغ حد التضحية بسلامة الجسد وراحته وصحته بصورة لا كبسَ فيها ولا إبهام.

هذه هي الصورة العملية التي فصل بها المسيح بين المنفعة الجسدية والغاية الروحية، التي من أجلها اعتمد الإنسان المسيحي ليبلغ الحياة الأبدية.

وقطع اليد والرجل وقلع العين، توضيح بوجهة نظر الله، فيما يمكن أن تبلغه جدية السعي في القداسة والطهارة وحفظ السيرة وضبط الجسد والحواس، لبلوغ الحياة معه.

وبهذا الحد، يكون الجهاد ضد الجسد، ليس موكولاً لتقديرات شخصية، أو حلول متوسطة يقترحها الإنسان لنفسه أو لغيره، تتناسب مع أهواء الذات أو مزاج الجسد.

فالمسيح جعل حداً واحداً ينتهي عنده وينتهي إليه الجهاد إذا تطلب الأمر ذلك، عند الجميع وبلا استثناء، ووضعه بهذه الصورة الجادة والمخرجة، حتى يختار عندها الإنسان بين الحياة والموت. وهذا يوضح الخطورة القائمة في حرب الجسد بلا جدال .

هذا التعليم الإلهي فذٌّ في نوعه وخطير، فهو يُلهب الإرادة العاجزة، ويرفع من معنويات الضعيف المتخاذل، ويُشعل نار الغيرة نحو القداسة حتى في القلب الجبان. لأنه إذا وضع الإنسان الموت أمام عينيه، كحدٍّ للجهاد الموضوع أمامه إزاء أي عثرة مهما تفاقم شرها واعتزَّ جَذْبُها وسلطانها وإغواؤها، فإنه حتماً سيسود عليها ويطأها تحت قدميه .

إذاً، فالجهاد مع الجسد ليس كالجهاد مع الشيطان، هنا الإنسان

مسئول عما في الإنسان، ومطلوب من الإرادة أن تؤدّي أقصى ما لها من جهد وسيادة. المسيح لم يقترح وسائل لضبط شهوات العين أو السيطرة على عثرات بقية الأعضاء، ولكنه كشف المسؤولية الواقعة على الإرادة لضبط العضو المُعثر من جهة، ومن جهة أخرى وضح الإمكانية الكائنة في صميم هذه الإرادة عينها لوقف العثرة. وبعد ذلك ترك للإنسان أن يباشر عمله وجهده وسلطانته، بكل ما عنده من تصميم وعزم وغيره .

وهذه الصورة النسكية الرائعة التي رسمها الرب لنا في جهادنا، مرسومة أصلاً من منظر الصليب، فاليدان والرجلان سُمرتَا، والعين انطفأ نورها ثمناً لعثرة الإنسان، وفدية عن الخطيئة التي تملك على الجسد الضعيف .

الجهاد النسكي الإيجابي الذي بالإرادة الحرة، يستمد قوّته من الشركة العملية في حياة المسيح وممارسة الصليب، مهما بلغ حتى إلى حد الموت.

+ «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢ كو ٤ : ١٠).

المسيح لم يكن يكره جسده الذي أسلمه للموت. ولكنه أبغض الخطيئة، ففرط - من أجلها - في الجسد!!

الجهاد النسكي في الإنجيل طعنة للموت وغلبة للحياة الأبدية، وليس شهوة إماتة مجردة.

+ «إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد، فستحيون» (رو ٨ :

+ «مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فسيحيا» (يو ١١ : ٢٥).

الجهد النسكي في الإنجيل يتجاوز معنى الجسد ليبلغ إلى الخطية:

الجسد عند المسيحي هو هيكل لله، والروح القدس يسكن فيه.

بهذا يتجاوز معنى الجهاد ضد الجسد ليصبح ضد الخطية، التي تريد أن تطرد روح الله من الجسد لتسكن هي فيه. الذي يُفسد الجسد هو الخطية، أي الموت وليس أي شيء آخر .

لا توجد عداوة أصلاً بين الجسد و"الروح القدس"، ولكن بدخول الخطية يتدنى الجسد يشتهي ضد الروح، ويتدنى "الروح القدس" يشتهي ضد الجسد المُعْتَر وكل منهما يقاوم الآخر.

العداوة هنا متأصلة بين الروح والخطية، لأنها قائمة طبيعياً بالشیطان. والشیطان يعمل للموت، أما الروح القدس فيعمل للحياة الأبدية.

الإرادة الحرة إذا تقدست، تنحاز للروح القدس ضد الجسد، إذا مال الجسد للخطية. لأن الإرادة الحرة مستمدة من الله والوصية.

إذن، صرامة الإنجيل ضد الجسد، هي في الواقع اتجاه روحي ضد الشيطان، ليس القصد منه أن يسلب الجسد شيئاً، ولكن ليعطيه شيئاً؛ يعطيه الحياة والحرة.

الجسد بحياته بالخطية يفقد نصيبه في القيامة للحياة الأبدية، وتتوحد فيه صلات الموت واللعنة: «إن عشتم حسب الجسد فستموتون» (رو

٨ : ١٣).

أما إذا أمتنا الجسد عن الخطية، بمنتهى الإرادة والصرامة، فإننا

نوصله بالحياة الأبدية ونغرس فيه روح القيامة «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو ٨ : ١١).

منهج الكتاب المقدس تجاه الغرائز:

بنفس الطريقة التي أسس بها السيد المسيح المنهج النسكي تجاه الأعضاء العائرة، استمر الكتاب يكشف الطرق التي ينبغي أن تقاوم بها الخطيئة، وهي الكامنة في إغواء الغريزة قبل أن تتمكن من الأعضاء وتعثرها لتسود عليها.

وفي القمة يضع السيد المسيح أعلى نموذج لمقدار الكفّ عن مسايرة الغرائز ما يمكن أن يبلغ إليه الإنسان الذي يسعى لدخول ملكوت الله: + «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، مَنْ استطاع أن يقبل فليقبل» (مت ١٩ : ١٢).

حيث قطع الأعضاء هذه، ليس لكونها في حالة عثرة، ولكن لكي لا تكون قط في حالة عثرة! هنا استعداد وتأهب، والقطع بالنية قطعاً مطلقاً .

في هذا العرض النسكي للمثل الأعلى في قبول مفهوم مقاومة الخطيئة لغاية إيجابية مقدسة وهي دخول ملكوت الله، يكون المسيح قد وضع أساس المنهج كله في مقاومة العثرات والخطيئة .

والكتاب المقدس يسترسل بعد ذلك على نفس الخط:

+ «حسن للرجل أن لا يمس امرأة» (١ كو ٧ : ١).

+ «اهربوا من الزنا» (١ كو ٦ : ١٨).
+ «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا، يقول الرب، ولا تَمَسُّوا نجساً
فأقبلكم» (٢ كو ٦ : ١٧).

أساس منهج النسك في الإنجيل، أن يصعد بالجسد فوق غرائزه:

الكتاب المقدس هنا لا يحض على منع الزواج، إنه لا يريد أن يسلب
الجسد شيئاً، ولكنه يؤسّس طريقاً للقداسة يصعد بالجسد فوق طبيعته،
وبالتالي يؤمّنه ضمناً ضد الخطية التي تخدعه كأنها من طبيعته.

«يوجد خصيان خصصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت
١٩ : ١٢)! هنا الرب لا ينهي عن الزواج، إنما يعرض حالة جسد اخترق
حدود الطبيعة ووطأ أعوازا وغرائزها، وهو إذ يستحسن هذا ويحض
عليه ليس لأن الطبيعة نجسة أو أن غرائزها شريرة، حاشا، ولكن لكي
يوضح أن فوق الغرائز توجد حياة أعلى، وبدون هذه الغرائز يمكن أن
يلبغ الإنسان إلى ملكوت الله.

هنا الرب يريد أن يلقي نوراً يفصل به بين أعواز الغريزة وحياة
الكمال المسيحي. الكمال المسيحي ليس مُسْتَعْبِداً للغريزة ولا لأعواز
الطبيعة. الإنسان المسيحي حر من الغريزة وحتميتها الطبيعية. الغريزة
سيّدة الجسد، والجسد عبد لها، أما «ناموس روح الحياة في المسيح يسوع
قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو ٨ : ٢).

النسك يرفع الإنسان من سلطان الغريزة المؤدّي للموت، إلى حرية الروح المؤدّي للحياة:

الإنسان المسيحي لا يعيش بعد تحت أعواز الطبيعة باضطرار، لأنّ المسيحي أخذ حياة فوق الموت وبعده، وهي تسود على الجسد وتقيمه من الموت. الحياة في المسيح يسوع تحدّي للموت بكل عوامله الجسدية والنفسية والعاطفية. الموت ليس نهاية حياة لمن يعيش في الرب، ولكنه بداية حياة تخلو نهائياً من ظل الموت وتهديده الكاذب. منذ أول لحظة نعيش فيها حياة حقيقية مع الرب نكون قد انتقلنا من سلطان الموت إلى حرية الحياة معه.

المسيح برفعه للإنسان فوق الغريزة، لم يقصد أن يقيّم ملكوت الله، ولكنه قصد أن يقيّم الإنسان ذاته. الإنسان، بوضعه الجسد تحت اضطرار الغرائز وحتميتها الطبيعية المطلقة، يفقد ملكوت الله، ولكنه يفقد نفسه. الله خلق الإنسان ليسود على الطبيعة، سواء في خلائقها أو في غرائزها، التي يحمل صورتها في جسده، تمهيداً ليسمو بها جميعاً.

حياة الإنسان ليست في غرائزه، بل في المسيح الذي هو عقل الإنسان الجديد:

الغريزة بالنسبة للجسد هي عقل الجسد الذي يوجهه ويتحكم فيه. حياة الحيوان تديرها الغريزة، وهي كفؤ لتؤهله أن يعيش ويتكفل بنفسه. تسوقه حواسه بواسطة اللذة الكامنة في الغريزة، فهو حينما ينظر يشتهي وحينما يجوع يأكل. وحينما يأكل يُخَصَّبُ. وحينما يخاف يهرب.

الإنسان يعيش ليس فقط لينظر ويشتهي ويجوع ويخصب ويهرب .

+ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» (مت ٤ : ٤).

+ «مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ» (مت ٥ :

٢٨).

+ «لي طعام لأكل لستم تعرفونه أتم!... طعامي أن أعمل مشيئة

الذي أرسلني وأتم عمله» (يو ٤ : ٣٢، ٣٤).

+ «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات»

(مت ١٩ : ١٢).

+ «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد» (مت ١٠ : ٢٨).

الجسد والغريزة ينتهيان عند الموت، الإنسان لا ينتهي عند الموت. إن كانت الخطيئة هي شوكة الموت التي جاء الرب وكسرها بالقيامة، فالغريزة هي شوكة الخطيئة التي كسرها الرب وهي في مهدها بتعاليمه ضد شهوة الجسد .

الغريزة أصلاً تعمل باللذة الحسية لتستدرج الجسد والإرادة لتؤدي الوظيفة الحيوية للجسد، كالأكل والراحة والنوم والإخصاب، ولكن الخطيئة تقتحم هذا التضامن الطبيعي بين الغريزة والجسد، وتستلغ اللذة لتعمل بها لحساب هوى النفس الخارج عن مصلحة الجسد!!

المسيح وقف بين الإنسان ونفسه، وفصل بين الجسد وغريزته. قَمَعَ الغريزة لا يُبطل الإنسان ولا يلغيه. قلع العين وقطع اليد والرجل لا يُفسد هيكل الإنسان، لأنه لا يُفسد هيكل الإنسان إلا الخطيئة وحدها.

قَمَعَ الغريزة في الإحجام عن التلذذ أو إضعافها بالجوع أو قطعها

جملة بالإخصاء، لا يفسد هيكل الجسد، الجسد تفسده الشهوة، إذا
حَبَلَتْ ووَلَدَتْ خطية. حياة الإنسان ليست في سلامة جسده، ولا
قوته في كمال صحته ولا في طول حياته أو حكمته. حياة الإنسان
بكلمة الله تقوم، وسلامته في نصرته على جسده وقوته في ضعفه،
وطول حياته في غلبته للموت.

النسك في التفسير الكنسي (الإكلسيولوجي) خلع العتيق (إيجابي)، ولبس الجديد (سلبي)

سر المعمودية يحوي كل المفهوم النسكي على مستوى إلهي؛ فهو يتضمن خلع الإنسان العتيق ولبس الإنسان الجديد (المسيح): «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح»، «أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور، وتتجددوا بروح ذهنكم؛ وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (غل ٣: ٢٧؛ أف ٤: ٢٢).

(أ) هذا "الخلع" هو العمل الإيجابي في الحياة المسيحية، ويختص باستخدام كل "الجهد الذاتي"، مع كل "الإرادة الحرة"، و"تعبئة" كل طاقات العقل والتفكير والعاطفة، لمقاومة عوامل الموت التي ملكت على الجسد سابقاً، والتي لا زالت تمتد آثارها على الأعضاء كحالة استعباد وعادة. هذا الخلع يتم بصورة سرية إلهية فعالة في سر المعمودية، ويتجدد ويتشدد ويكمل على طول المدى في سر التوبة، لأن التوبة هي تجديد المعمودية.

(ب) أما "لبس المسيح" فهو العمل "السلبي" الذي به نتقبل المسيح - دون جهد ذاتي - إنما كهبة ونعمة: النور والبصيرة والسلام الداخلي، والمحبة التي تفوق العقل، والصبر الكامل، والعزاء القلبي، والفرح الذي يملك وقت الشدة، واحتمال الضيقات والظلم والتعير، وبقية مواهب الله

الثمينة المعطاة بالروح القدس كثمار حياة المسيح فينا. وهذا اللبس وإن كان يتم للمرة الأولى في سر المعمودية: «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح»، إلا أن تجديده ودوامه يتم بسر الإفخارستيا.

خلع الإنسان العتيق ولبس حياة المسيح، عملية واحدة متحدة متآزرة متعاونة مستمرة مدى الحياة: اصطلاح عليها التقليد الآبائي بكلمة (Synergy = συνεργία) أي توافق في العمل.
الأولى بالثانية تقوم، وبدونها لا يمكن أن توجد.
والثانية بالأولى تدوم، وبدونها لا بد أن تنحل وتتعطل.

في سرّي التوبة والإفخارستيا يكمل الـ Synergy:

التوازن بين العمل الإيجابي والعمل السلبي، أي بين خلع الإنسان العتيق ولبس المسيح، تمنحه الكنيسة بواسطة سرّي التوبة والإفخارستيا: التوبة المستمرة خلع، والتناول المستمر لبس، وتآزرهما معاً بانسجام وديمومة بدون انقطاع هو جوهر الاصطلاح الآبائي Synergy، حيث التوبة تقوم على الجهد الذاتي في مراجعة الضمير وفعل الندامة وضبط الجسد وقمع الشهوات المختلفة والاعتراف بكل خطية. والكنيسة تحتّم على الجهد الإيجابي بإعطاء سر الغفران في الحلّ وفي الإفخارستيا، الذي هو ثمرة التوبة وجزاؤها، والذي به تكون التوبة ذات فعل جوهري سرّي يسهّل خلع الإنسان العتيق أي إماتة شهواته؛ وحيث التناول يكون بمثابة استمرار حياة المسيح فينا، أي أخذ الغلبة والنصرة بها على الموت والجحيم والشيطان، وإبطال سلطان الخطية المؤدي إلى الهلاك. فالكنيسة حينما تجتمع حول الإفخارستيا، تمثل

شعب الله الذي جاز البحر الأحمر، أي الموت، وعبر إلى الشاطئ، أي الحياة، وهزم فرعون، أي الشيطان، والكل يُسَبَّح تسبحة الغلبة والخلاص، تمهيداً للغلبة الأخيرة والخلاص النهائي. الجسد المقدس يُعطى ليس بالرمز، ولكن بالحقيقة، هذا العبور الدائم من الموت إلى الحياة وغلبة الشيطان مع فرح وبهجة وتهليل قلبي .

الكنيسة ترى أن حياة الفرد مُعرَّضة دائماً للسقوط، وأن العدو يترَبَّص بأولادها ليل نهار، وأن الخطية لا تكف عن مناوأة الجسد. لذلك هيأت سر التوبة بصفة متكررة، في تقرير فصول للصوم على مدار السنة كفرص محددة لتفتيش القلب ومراجعة الضمير، وجعلت المغفرة رهن كل اعتراف قلبي وندم صادق، ثم جعلت من سر الإفخارستيا، سواء في أثناء الصوم أو بقية الأيام، حالة قيامة داخلية مستمرة في القلب، تتناسب مع هبة القيامة التي تهبها النعمة مجاناً بحياة المسيح في سر الإفخارستيا!

واستعداد الكنيسة لتكرار سر التوبة تكراراً غير محدود غير منتهي، يحمل صورة جوهرية لحقيقة تكميل المغفرة التي ضمنها الله لنا بآلام ابنه الوحيد.

كذلك، فتكرار سر التناول تكراراً غير محدود غير منتهي، يحمل صورة جوهرية لحقيقة تكميل النصر التي أكملها الله لنا على عدونا وفي جسدنا بالقيامة من الأموات.

الكنيسة أعطت بتكرار التوبة والتناول قوّة للرجاء في قلوبنا لا تنتهي، لتتابع المسيرة حتى النهاية.

النسك في التفسير اللاهوتي

(أ) التجسّد الإلهي بحد ذاته يؤخذ كأعلى مفهوم لعمل نسكي، إذ يحمل أقصى حالة اتضاع ممكنة، هذه أتمّها ابن الله في ذاته بإخلاء إرادي من كل مجد اللاهوت وليس صورة عبد متضع، خادم، مرفوض .

ومن جهة أخرى وكنتيجة مباشرة للإخلاء، فإن اتحاد المشيئة البشرية بالمشيئة الإلهية اتحاداً كاملاً طابق فيه المسيح إرادة الإنسان مع إرادة الله مطابقة كلية، يُعتبر في حد ذاته عملاً نسياً بمفهوم الطاعة المتجردة التي أثبت بها بصورة قاطعة بنويته لله الآب عملياً:

لأن النسك هو العمل المستمر لمطابقة المشيئة والإرادة البشرية لمشيئة وإرادة الله. هذا التعريف يضبط العمل النسكي نفسه، ويجعل كل نشاط منه لا يطابق مشيئة الله، خطأً عقيدياً، باعتبار أن الحياة المسيحية هدفها النهائي الاتحاد بالله، هذا الاتحاد يتبدى من أول لحظة في الحياة مع الله بواسطة إطاعة الوصية، كمحاولة لإخضاع مشيئة الإنسان لله إخضاعاً ينمو شيئاً فشيئاً حتى يصير مطابقاً لها.

وبذلك يصير مفهوم النسك من وجهة نظر لاهوتية هو:

أولاً: تمهيد عملي لا غنى عنه لبلوغ حالة الاتحاد بالله، بواسطة تهئية الطبيعة البشرية بالإخلاء المستمر من كل كبرياء أو عظمة أو مجد بشري كاذب، لكي تكون متضعة على مستوى تجسد ابن الله، فتصير مناسبة ومستعدة للشركة مع الله.

وثانياً: رفع حالة العبودية التي يعيشها الإنسان بعيداً عن الله إلى

حالة بنوية له، بالاجتهاد الدائم في طاعة وخضوع حتى الموت، لتكميل مشيئته بكل وسيلة ممكنة واحتمال كل ضيقة وتجربة توضع في طريقه، ليثبت أنه جدير ببنوة المسيح وميراثها، ويتم ذلك بشهادة الروح القدس في قلب الإنسان وضميره، على حد قول بولس الرسول: «لأنه إن عشتُم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله» (رو ٨: ١٣-١٦).

(ب) النعمة والاجتهاد الذاتي في العمل النسكي:

الحياة النسكية بالتحديد اللاهوتي، تمهيد عملي لحالة اتحاد بالله، وفتح لطريق الإنسان ليرتقي من عبودية الجسد إلى حرية مجد أولاد الله، أي إلى بنوة كاملة في المسيح، أي أن لها هدفاً محدداً، هو الاتحاد بالله والبنوة له.

هذا الهدف يبدو لأول وهلة أمام كل إنسان خاطئ، أنه أمر غير معقول بل ومستحيل وفائق التصور. وهذا الشعور صادق وحق، لأن الحياة النسكية لا تعني إطلاقاً جهد الإنسان الذاتي فقط، وإلا فحتى العبودية لله مستحيلة.

الحياة النسكية عمل إيجابي وعمل سلبي، أي: شيء نحصل عليه

بالجهد، وشيء نحصل عليه بدون جهد. الذي نحصل عليه بالجهد هو مكتسب بالإرادة، والذي بدون جهد موهوب لنا من قِبَل الله بالنعمة. كل فضيلة من الفضائل لها حد إيجابي تنتهي عنده، وحد سلبي تبتدى منه.

الاجتهاد والنعمة في اكتساب فضيلة المحبة:

فالحبة يمكن أن تمارسها وتجتهد في تنميتها واجباتها بالنسبة للناس والله بدون أي عائق وبدون أية مساعدة من الناس، وفي أي لحظة تريد أن تبتدى فيها أي عمل محبة يمكن أن تبتدئه بإرادتك وحدك. ولكن مهما أوتيت من قدرة وإخلاص واستعداد وإرادة، فإن محبتك تقف عند حد معين لا يمكن أن تتخطاه، هذا الحد مرتبط بإمكانية الإنسان المحدودة وتدخل ضعفات كثيرة غير مباشرة تحد من انطلاقه في المحبة. عند هذا الحد تبدو المحبة دائماً أنها اجتهاد شخصي مشكور، ولكن تُرى بدون جدال أنها ناقصة .

ولكن الحادث أن الإنسان لا يقف عند هذا الحد، إذ أن نعمة الله لا تكف عن عملها في قلب الإنسان المجتهد، حيث يستقبل الإنسان روح المحبة الذي يرفع في الحال من قيمة المحبة وحرارتها وفيضها في القلب، ويُسخّر كل القدرات المتخلفة والطاقات المتعطلة في الإنسان لتخدم المحبة، ويبدو الإنسان محملاً بقوة جارفة ليحب بدون قيد ولا شرط، وبصورة يبدو فيها للآخرين بوضوح أن الإنسان واقع تحت تأثير إلهي فائق، وأن قوّة إلهية عظيمة تعمل فيه، حتى أنه لا توجد أية عداوة

تستطيع أن تحجز محبته عن الناس.

فإذا عدنا إلى الحدود الإيجابية لفضيلة المحبة، أي أنها عمل الجهد الذاتي بالإرادة، نجد أن شعور الإنسان عند هذه المرحلة بالذات، يكون شعوراً ناقصاً جداً بالنسبة لمطالب محبة البنين، ولا حتى بالنسبة للعبيد إذا كان خالياً من عمل النعمة. أما إذا انسكب روح المحبة في قلب الإنسان، فإن شعور البنوية يتزكى في الحال داخل الإنسان، مما يلهب قلبه ويأسره ويُشعره بقربه الشديد من الله.

الاجتهاد والنعمة في اكتساب فضيلة الاتضاع:

وكذلك في فضيلة الاتضاع، فالجهد الإنساني فيها ينتهي أقصى ما ينتهي عندما يشعر الإنسان أنه لا شيء، وأنه غير محسوب عند نفسه، وأنه أقل الناس جميعاً. وحتى عند هذا الحد لا يكون الإنسان راضياً عن نفسه، ولا يكون الناس كلهم راضين عنه، إذ يبدو أنه متكلف يحاول أن يجرد الإنسان من إنسانيته، هذا إذا خلا كل جهاده السابق من عمل النعمة.

ولكن، إذا ما بدأت النعمة عملها في القلب، ووهب الله للإنسان روح اتضاع - أي بروحه القدوس - فإن الإنسان يشعر في الحال أنه أصبح يملك شيئاً جديداً، وتبدو هيبة الاتضاع فيه جليلة بحيث تزيد بشريته تكريماً وتجعل إنسانيته فوق الإنسانية الطبيعية، حتى يكاد يحس الناس أن الله يتكلم ويعمل فيه. وهنا يصير اتضاعه جاذباً لقلوب الناس معلناً عن الله الذي فيه.

ولكن ما هي الحدود التي ينتهي فيها جهد الإنسان الذاتي

والحدود التي يبدأ فيها عمل النعمة؟ وأيهما أسبق في العمل، جهد الإنسان أم عمل النعمة؟ وأيهما أكثر عملاً؟

هذا هو الجدل اللاهوتي الذي دخلت فيه الكنيسة وعانت منه الحياة النسكية معاناة شديدة، دون أي طائل وبلا أي منفعة!

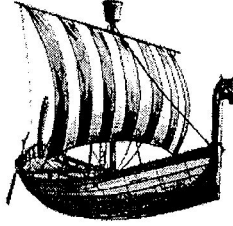
فبيلاجيوس المبتدع نزل إلى الحضيض، ونظر إلى الموضوع على مستوى الواقع العملي المجرد، فرأى أن جهد الإنسان هو كل شيء، فخرج عن حدود الإيمان.

وقاومه القديس أغسطينوس بشيء من المغالاة، ونظر إلى الموضوع نظرة مطلقة، فرأى أنه لا يوجد لجهد الإنسان أي قيمة، طالما أن الإنسان يحيا ويتحرك ويوجد بالله. إذن فالنعمة هي كل شيء.

وتدخل كاسيانوس متخذاً الطريق الوسط، معتمداً على تعاليم بعض القديسين بصحراء نتريا فقال: إن الإنسان يبدأ بالجهد الذاتي، والنعمة تُكَمَّل، فاعتُبر أنه وقف وقفة خاطئة في منتصف الطريق.

وأخيراً، استقر الوضع اللاهوتي على اصطلاح محدد (كان مستعملاً عند كليمنديس الإسكندري)، يضم فعل الجهد الذاتي وعمل النعمة معاً في الحياة النسكية بصورة متلازمة، وهو كلمة (Synergy = συνεργία) = (سينرجيا) وتعني انسجام العمل أو توافق الفعل، بحيث يكون لكل من الجهد الذاتي وعمل النعمة حرية البدء والتكميل والتلازم جميعاً معاً. ويوجد تصوير عملي لعمل الجهد الذاتي والنعمة لا يخلو من منفعة، وهو تشبيه الحياة النسكية بملاح يجاهد ليعبر بحراً وفي زورقه مجدافان وشرع،

فهو تارة يجدف بيديه وتارة يفرد شراعه ليلتقط الريح، وهكذا تسير
مركبته بجهد ذراعيه ويفعل النعمة إلى أن يبلغ قصده.



البصيرة الثانية

المفهوم الروحي للنسك في الإنجيل

النسك عمل بشري ويظل بشرياً
إلى أن يقده الروح القدس والكلمة:

يلزم الاحتراس الشديد إذا ما حاولنا أن نفحص العمل النسكي على ضوء كلمات الكتاب المقدس عموماً، لأن الانحراف بكلمة الله عن جوهرها الذاتي الحي الفعال في الطبيعة البشرية وفي العالم إلى مجرد عمل بشري يكون من أخطر ما يمكن.

فالكتاب المقدس لا يمكن الدخول إليه إلا من مدخل إلهي، أي على أساس أن كلمة الله هي الحاملة لسر الحياة الأبدية، وباعتبارها وحدها روح الحياة المغيرة والمجددة والمقيمة من الموت بسلطان الله وعمل المسيح الذي هو الكلمة المتجسد. أما العمل النسكي الذي يؤديه الإنسان فمهما تسامينا بدوافعه ومضمونه وأهدافه فهو عمل بشري.

الكتاب المقدس يقوم أساساً على السلطان الذاتي لكلمة الله، المرسلة لتعمل عملها في العالم بقوة إلهية كبشارة "إنجيل" مفرحة، تفتح بالخبر السار الطريق إلى ملكوت الله عبر قلب الإنسان بقوة فائقة. ولكن الكتاب المقدس لا يغفل العمل البشري أيضاً، بل يركيه كوصية وأمر. العمل النسكي موضوع لإخضاع الطبيعة البشرية

لسلطان الروح، حتى لا تتعوق أو يتعطل تجديدها. غير أن الجسد لا يستطيع أن يمتد أو يفعل في الروح، والعكس صحيح. في المسيحية الروح القدس يقدس الجسد ويُروِّجُه ويهيئه لقيامة غير فاسدة، بل الروح يستطيع أن يقدس المادة أيضاً وينقلها من طبيعتها لجعلها روحانية. لذلك، كل عمل جسدي إذا لم يتقدس بالروح فهو ميت، لا بد أن ينحصر العمل الجسدي بين دافع روحي وغاية روحية حتى يُعتبر عملاً روحياً، الدافع الروحي يقدس العمل الجسدي. والغاية الروحية تخلّده.

لا يوجد منهج نسكي في الإنجيل:

كذلك فالعمل النسكي في الكتاب المقدس لا يأخذ لنفسه شكل منهج خلاصي، فالإنسان يستحيل عليه أن يعمل عملاً جسدياً من طرفه يؤول إلى خلاص نفسه - الله وحده هو مُخلص البشر، والخلاص عمل فائق. ونحن نصلي دائماً^(٧): "بأعمالي ليس لي خلاص"، ولكن في نفس الوقت يقف الكتاب موقفاً حاسماً تجاه ممارسة الأعمال النسكية، كضرورة تحتمها طبيعة الإنسان والعالم بسبب ميلها للنكوص والسقوط.

(٧) صلاة نصف الليل (قطع الخدمة الثالثة).

المهدف الروحي من العمل النسكي، في الإنجيل:

العمل النسكي بالممارسة المتواصلة، يُقوِّم الطبيعة البشرية ويُشدها، ويحفظها من الارتداد والتقهقر، والميل المستمر للسقوط والفشل، أما إقامة الطبيعة من الموت وتجديدها وإنارتها وإعطائها الحياة الأبدية فهو عمل الكلمة. "أقمت الطبيعة بالكلمة"^(٨).

والكتاب المقدس بالرغم من اهتمامه في مواضع كثيرة جداً بأعمال نسكية حاسمة وضابطة لقلب الإنسان وفكره وأعضاء جسده، إلا أنه لم يرسم في تعليمه صورة ممارسات شكلية معينة أو قوانين تصلح أن تكون مدرسة عملية لحياة نسكية جدِّية. الكتاب المقدس دائماً يَشْخَصُ ناحية الروح، لذلك لا يوصي إلا بالإلهام كطريقة وكأساس للنمو والمعرفة والتجديد والحياة.

فالجسد في الكتاب المقدس يُعان دائماً بالروح وليس العكس. اتجاه التعليم في الكتاب المقدس اتجاه في خلق الإنسان جديداً، وليس تقويمياً أو تعديلياً أو مدرسياً. الإنسان من خلال الكلمة يَدْخُلُه الروح ويباشر عمله فيه، كفعل خَلَقَ مستمر بالإنارة والإلهام، كإنسان يولد بالروح من جديد فيؤهل لرؤية الملكوت ويحيا مع الله. التقويم المستمر للطبيعة الجسدية والتعديل المستمر لها بالتهذيب العملي، بالممارسات النسكية، لا يؤهلها للميلاد الجديد ولا للاستنارة ولا للإلهام ولا لرؤية الملكوت ولا

(٨) قداس القديس غريغوريوس الثيولوجس.

للحياة مع الله، لأن ليست هذه من طبائع الجسد حتى توهب بأعمال الجسد، إنما هي ثمار الروح، وكل غاية الأعمال النسكية هي تهذيب الجسد والحواس لتُنمِّي فيه قوَّة الضبط الإرادي والاحتِراس واليقظة، حتى لا يعوق عطية الروح ولا يمنع عمل التجديد.

الجسد والعالم بالنسبة للإنجيل:

الحياة النسكية حياة مشاعة في كل الأديان، ولبعضها مناهج قاسية وخطرة وشديدة الانحراف. ولكن المنهج النسكي من حيث ماهية الممارسات الجسدية ودوافعها وأهدافها، يتحدَّد بصورة أساسية بالنسبة للنظرة الاعتبارية لقيمة الجسد الإنساني والعالم، اللذين هما ميدانا العمل النسكي. الكتاب المقدس يختص بنظرة اعتبارية فريدة من نوعها بالنسبة لجسد الإنسان والعالم، يختلف فيها عن كل الأديان.

في اعتبار الكتاب المقدس، الجسد الإنساني ليس شريراً، ولا هو مصدر للشر. إنما هو فقط مُنْغَلٍ للخطية ومُنْقَاد إليها ومنجذب نحوها، فإذا كفَّ عن انفعاله للخطية وتنافر معها، صار قابلاً للقداسة، وصار هيكلاً مُعَدَّاً لسُكْنَى الروح القدس.

كذلك والعالم ليس شريراً، في اعتبار الكتاب المقدس، ولكنه أُخْضِعَ للباطل فقط، عن اضطرار (رو ٨ : ٢٠)، ووُضِعَ في الشرير (١ يو ٥ : ١٩). فهو في حالة سقوط، يئن ويود أن يتحرر من الباطل، وينتظر فداء الإنسان (رو ٨ : ٢٣). والإنسان المتحرر من الخطية، يستطيع أن يقيم العالم حوله ويكرز له بالقيامة. والكتاب المقدس جعل

الإنسان مسئولاً عن الكرازة للعالم أجمع، لأن الله أحب العالم (يو ٣: ١٦).

الكتاب المقدس ينص على أن الإنسان الأول، آدم وحواء معاً، كانا يعيشان مع الله بجسديهما، في حياة شركة عميقة واقتراب ورؤيا مستمرة، بدالة بنوية لله صادقة وبسيطة، ولم يكن الجسد ولا العالم عند آدم وحواء، مانعين على الإطلاق من رؤية الله والحياة معه. ولكن بعد قبولهما الخطية، ودخول الخطية فكرهما وجسدهما وإرادتهما، وقعا في حالة خوف من الله، وفرقة اضطرارية، وعدم رؤيا، ونزوع إلى الاختباء من وجهه!

المسيح جاء ليعيد الإنسان إلى الله، ويرفع حالة الخوف والفرقة والعمى الروحي والهروب، بواسطة رفع السبب والعلة... السبب والعلة ليس هو الجسد أو المادة أو العالم أو الإرادة، وإنما الخطية التي سكنت الجسد والعالم والإرادة!

الكتاب المقدس يهتم بالجسد والعالم، كيف يُحرّرهما من الخطية وكيف يُقدّسهما لله، لأن بذلك يعود الإنسان إلى الحياة مع الله.

الكتاب المقدس قوّة روحية تحرّر الجسد من الشر المتسلط عليه، وليس عمل الكتاب المقدس أن يتحرر الروح من الجسد. كذلك فالكتاب يهتم كيف يتحول العالم في نظر الإنسان وفي حياته، من ظلمة إلى نور، ومن باطل إلى حق، وتتجدد علائق الناس وتتقدس نظرتهم إلى المادة والحياة الجسدية، وليس تعليم الكتاب المقدس أن

يُهْمَلُ العالمُ كَشْرٌ مِثُّوسٌ مِنْهُ يَجِبُ أَنْ يَقَاطَعَ وَيَقَاوِمَ إِلَى أَنْ يَزُولَ .

المادة بحد ذاتها ليست شريرة، في تعليم الكتاب المقدس، لذلك لا يطالب بفصلها عن الروح. لا يفصل عن الروح إلا الخطيئة، لأن الخطيئة جوهر شر، بمعنى أنها بطبيعتها عدم ولا شيء، وكل مَنْ يتحد بها يتحرك نحو العدم واللا شيء، إلى الموت والهلاك.

إذا تطهر الجسد من سلطان الخطيئة، استنار: «متى كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً... ليس فيه جزء مظلم» (لو ١١: ٣٤-٣٦)، وصار شريكاً للروح في الرؤيا وفي التحليلات وفي القيامة العتيدة أن تكون بمجد الله.

الجسد له نصيب أساسي في التجديد. والكتاب يطمئننا أن المسيح سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (في ٣: ٢١).

كذلك فالكتاب يُصِرُّ على الطلبة والصلاة لتمكين مشيئة الله على الأرض كما هي في السماء (مت ٦: ١٠)، كي تتحول طبيعة العالم في حد ذاتها إلى طبيعة نيرة حسب الله. كل تعاليم الكتاب المقدس وقوته تتجه مباشرة إلى تحرير المادة والجسد والعالم والإرادة والمعرفة، من سلطان الخطيئة والشر، دون إسقاط للمادة أو الجسد أو العالم أو الإرادة أو المعرفة، في حد ذاتها.

النسك في الإنجيل يعمل جنباً إلى جنب مع العمل الإلهي:

قوة الكتاب المقدس الإلهية قائمة بصورة قاطعة، سواء بالعمل الإلهي

أو بالعمل البشري، في عمليات تحويل جذرية، في تحويل الموت إلى حياة، وتغيير الفاسد إلى عدم فساد، والظلمة إلى نور، وغير الطاهر إلى طاهر؛ وعلى وجه العموم، رفع الطبيعة الضعيفة المستعبدة تحت العَوَز والجهل والخطية، إلى شركة في الطبيعة الإلهية الروحانية الفائقة.

على أساس هذا الاتجاه العملي الإيجابي في الكتاب المقدس، (بخصوص المادة والجسد والعالم والشر)، يتحدّد مفهوم العمل النسكي ودوافعه وأهدافه المفروض أن يقوم بها الإنسان. بحيث يسير جنباً إلى جنب مع العمل الإلهي الذي اضطلع به الله بالتجسّد والفداء والخلقة الروحانية الجديدة، بالميلاد الثاني وسر التجديد بالروح القدس .

أخلاقية الجريدة الروحانية هي مصدر الإلهام للعمل النسكي:

الله يخلق طبيعة روحانية جديدة للإنسان، ويمدها بكل وسائل النعمة، لكي يتأهل بها الإنسان إلى الدخول في شركة الحياة الأبدية مع الله وميراث يسوع المسيح. ولكن الطبيعة الروحية الجديدة الموهوبة للإنسان كعمل إلهي، لا تلاشي الطبيعة الجسدية أو تلغي صفاتها وعملها. الطبيعة الروحانية الجديدة الموهوبة من الله، لها عمل إيجابي في الإنسان تجاه الجسد والحواس والغريزة والإرادة والعالم، عمل ذو اتجاهين:

الاتجاه الأول: أن تُضَعَفَ ميل الجسد نحو الخطية.

الاتجاه الثاني: أن تجذبه باستمرار إلى الله.

الخليقة الجديدة بكل إمكانياتها وكل إنعاماتها وكل مواهبها، في الكتاب المقدس، ليست مستقلة عن الجسد أو قائمة بذاتها منفصلة عن الاحتكاك بالعالم وحوادثه، ولا تُعتبر في حد ذاتها نهاية أو نتيجة، ولكن كطريق نعبره عائدین إلى الله بالجسد والإرادة وفي صميم العالم الذي نعيش فيه.

الروح في الخليقة الجديدة وصيٌّ على الجسد، وقائد ومعلّم وطبيب وقاضي ومؤدّب، بسبب ما جعله الله في الخليقة الجديدة من حرية الإرادة، وحرية الاختيار، ومعرفة الحق، والقدرة على التمييز، والاستنارة، والحب الإلهي.

الخليقة الروحية الجديدة في الإنسان تكون صادرة من الله "ومتصلة" دائماً به، والنعمة تدبرها وتسندھا وتمدها بقوة سرية، لذلك فالإنسان المولود ثانية قادر أن يقود الجسد ويخضعه لسلطان الروح، وقادر أن يحرره من سلطان الخطية، وقادر أن يحرره من حتمية الغريزة واضطرار الطبيعة وسطوة العادة، وقادر أن يطهره من آثار الضعف التي خلفتها الخطية. لذلك نجد الكتاب المقدس يضع المسئولية كاملة وبصورة صارمة علي الإنسان الروحي، من جهة مقاومة الخطية، وحفظ الجسد طاهراً، والسلوك روحياً، وتجنّب كل عثرة وغواية، والوقوف ضد تيارات العالم وشهواته، دون أن يعطي للإنسان الروحي أي عذر، أو يلتمس له أدنى إعفاء من اللوم والدينونة، إن هو أطاع الجسد أو خضع للخطية.

تفسير الوصية النسكية على أساس واقعي روحي:

أي أن الوصية النسكية في الكتاب المقدس بصورتها الصارمة، كأن يقطع الإنسان عينه أو يقطع يده أو رجله أو يخصي نفسه، لا تعتمد على قدرة الإنسان الطبيعية أو شجاعته وبأسه، إنما تستمد ثقلها الروحي من طاعة الوصية طاعة حرفية، ومن الاعتماد على القوة الروحية الموهوبة للإنسان بواسطة الخليقة الجديدة التي نالها من الله، والتي لا تزال متصلة بالله بالنعمة. هذا بالإضافة إلى استعداد المسيح الكامل للمعونة الشخصية في اللحظة الحرجة، حتى يبلغ الإنسان إلى مستوى نية قطع اليد والرجل وقلع العين والإخصاء بالفعل، في عمق الضمير كما بلغ إبراهيم إلى نية ذبح ابنه إسحق والسكين في يده، وحينئذ تتم معجزة التحول والنجاة.

لذلك، فأي محاولة لشرح أو تفسير تعليم المسيح الصريح بأن «إن أعثرتك عينك فاقلعها»، وكذلك «يدك أو رجلك» (مر ٩: ٤٣-٤٧)، على أساس مجازي أو على أساس أنها مجرد مثل أعلى غير قابل للتنفيذ، يُسيء أشد الإساءة إلى الغاية من تعاليم المسيح، ويطعن في مفهوم الخليقة الجديدة وسلطانها على الجسد، ويجردها من روح القوة ويضعف سلطانها الروحي الفائق.

لأن وصية قطع اليد أو الرجل أو قلع العين أو الإخصاء، وُضعت أصلاً لتقييم الحياة الأبدية بالنسبة للحياة الجسدية، وغاية المسيح منها أن يبلغها كل إنسان في أعماق ضميره، مقتنعاً بصحتها كما اقتنع

إبراهيم بصحة أمر الله بذبح ابنه إسحق، وارتضى بهذا الأمر وانتهى مع نفسه تماماً لتنفيذه، فلما بلغ حد النية الكاملة لذبح ابنه إطاعة لأمر الله، تدخل الله باعتبار أن إبراهيم أكمل الذبح فعلاً، وإن لم يكن بالسكين، بل بنية قلبه.

إذن فالوصية النسكية الجسدية موضوعة للتنفيذ الفعلي، إنما على مستوى الضمير بكل صدق وإخلاص وأمانة.

وفي حياة المسيح نجد العاملين يتمان معاً: عمل النية مع العمل الفعلي. فالمسيح ذبح نفسه بالنية يوم الخميس حينما قال لتلاميذه هذا هو جسدي المكسور، هذا هو دمي المسفوك. ويوم الجمعة سلم الجسد فعلاً للذبح على الصليب!

والإنسان المسيحي الذي تُعثره عينه أو شهوته، مطلوب منه أن يصلب جسده بحسب الإنجيل (غل ٥ : ٢٤)، أي أن يعيش بالنية مقلوع العين تجاه الشهوة، مقطوع اليد تجاه الحرام، "مَخْصِي" تجاه الزنا؛ وبالاختصار، ميت الأعضاء مصلوب الجسد تجاه كل خطية.

وإن كان يميل الشُّراح إلى التقليل من قيمة هذه الوصية جانحين في ذلك - خطأ - إلى تصور نتيجة القطع أو القلع على المستوى الجسدي، متجاهلين القوة المُعَيَّنة المرافقة لتعليم الرب التي تتدخل عند لحظة بلوغ النية إطاعة الوصية، غير ملتفتين إلى الأساس الذي وُضِعَتْ من أجله وصية قطع الجسد، وهو أفضلية الحياة الأبدية التي من أجلها مات المسيح نفسه وصُلِبَتْ أعضاؤه كلها.

التعليم النسكي الإنجيلي في الواقع العلمي الروحي:

إذن، فالكتاب المقدس يتشدد في الوصية النسكية بقدر ما يضمن نتيجة بلوغ حد تنفيذها! الوصية النسكية في الكتاب المقدس، قبل أن تبلغ هذه الصورة العظمى من العنف والصرامة تجاه الجسد، سبقت وغرست في الجسد عينه - كخليقة جديدة (٢ كو ٥: ١٧) - غلبة الموت وقوة الحياة!

الكتاب المقدس، قبل أن يطلب أن تقلع العين وتقطع اليد والرجل، سبق فولد فينا إنساناً جديداً كاملاً بكل أعضائه، روحياً مؤهلاً للحياة الأبدية، لا يتأثر من تقطيع الأعضاء بل لا يخشى من القتل كلية، والملكوت على قيد خطوة. هذا يجد ذاته يرفع الإرادة والنية بقوة إلى مستوى إطاعة الوصية.

إذن، فصرامة الوصية النسكية في الكتاب المقدس تعتمد، بصورة أساسية، على طاعة كلمة الله بصفتها قادرة أن تُكْمِلَ كل وعد الله، وعلى عمل النعمة في الخليقة الجديدة التي نلناها سابقاً بالميلاد الثاني من الماء والروح بالمسيح، بحيث أنه بدون عمل النعمة هذا فإن العمل النسكي، مهما بلغ، يصبح عديم النفع؛ «ويحيي أنا الإنسان الشقي مَنْ يَنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ» (رو ٧: ٢٤). والإماتة التي بلغت إلى قلع العين وقطع اليد والرجل وخصي الإنسان لنفسه، تعتمد أساساً وبصورة كلية على الحياة الأبدية التي منحها الله في كيان الإنسان، وصارت مستعدة أن تقيمه من المرض

والتشويه والموت إنساناً لا عيب فيه، كاملاً في الروح، مثمراً،
لائقاً لميراث كامل مع المسيح في ملكوت الله. هذا يشجع الضمير
لكي يسلك الإنسان في هذه الحياة كأقْطَع اليد، أو كأعرج الرجل،
أو كمقلوع العين، أو كمخصي تجاه الخطية، بمنتهى راحة الضمير
دون الحاجة إلى سكين أو مخراز لتكميل العمل على مستوى الجسد.

الوصية النسكية تقوم في الإنجيل بضمان النعمة:

إذن، فالكتاب حينما يأمر بقلع العين اتقاءً للخطية ودفاعاً عن
القداسة، يعتمد سرّاً على عمل النعمة داخل الإنسان، التي توصله
إلى هذه الحالة بالفعل بدون سكين أو مخراز، بقصد ضمان دخول
الإنسان إلى الحياة الأبدية وهو أعور بالنية، أي كَمَن لا عين له
تجاه الخطية مع أنه ذو عينين تجاه الله.

لذلك، فالوصية النسكية تفقد قيمتها في الكتاب المقدس إذا لم
تكن - من جهة - معتمدة على النعمة، ومن الجهة الأخرى، تكون
مرتبطة بالحياة الأبدية كهدف السعي. أي لابد أن يكون العمل
النسكي أولاً، مستمداً قوته ودوافعه من المسيح، ومؤازراً بالنعمة،
أي لا يكون مستمداً من الصرامة الجسدية وحسب، لأنه يمكن أن
يقلع الإنسان عينه عن صرامة جسدية ويظل يشتهي كما هو،
وثانياً، يكون هادفاً للحياة الأبدية، أي لا يتوقف عند لذة الإماتة بل
يتجاوز الإحساس بالموت إلى الإحساس بالحياة الأبدية! لأنه قد
يخصي الإنسان نفسه بالفعل وعن صرامة جسدية ويبقى نادماً على
ما فعل، بعيداً عن ملكوت الله.

لذلك، فالعمل النسكي في الكتاب المقدس ليس طقساً ولا ناموساً جسدياً في حد ذاته، بل لا يزيد عن كونه وصية أو أمراً يحمل ضمان تحقيقه في الاستجابة القلبية له. فبمجرد أن ينحاز الضمير للوصية بصدق النية واستعداد الإرادة يجد الإنسان عوناً من النعمة في حينه، وبمجرد أن يعزم على التنفيذ تبدأ النعمة تعمل بدل الخطيئة وتبدأ الحياة تسري بدل الموت لحظة بلحظة، فكل إماتة للأعضاء بإخلاص النية يلازمها قيامة بالروح للأعضاء بالنعمة، وكل موت حقيقي يلازمه حياة أبدية.

العمل النسكي عمليتان متلازمتان:

تطبيق للوصية (موت)، وقبول نتائجها بآن واحد (حياة).

العمل النسكي في الكتاب ليس محاولة تمهّد لشيء قد يأتي بعدها أو لا يأتي، ولا هو مجرد تمرين يؤهل لنتيجة، ولكنه وصية إلهية يتلازم فيها العمل والنتيجة معا بصورة وعد يتحقق بالإيمان، فكل عمل نسكي يتم على مستوى الوصية هو في واقعه الإلهي موت وحياة، خسارة وربح معاً.

الموت والحياة في العمل النسكي عملية واحدة وليس عمليتين، هما عملية واحدة ذات حدّين. فالموت يكمل بمقدار الدخول في الحياة مع الله بالوصية، والحياة تسود بمقدار تكميل الوصية بالموت عن الجسد والعالم.

التحول هنا يتم في صميم طبيعة الإنسان. حبة الحنطة يجب أن

تقع وتموت أولاً (يو ١٢ : ٢٤)، وحينئذ الموت نفسه يتحول لها إلى حياة جديدة.

العمل النسكي كموت حياة يستمد قوته من سر الفداء، موت المسيح وحياته:

العمل النسكي في الكتاب المقدس يستمد قوته في التجديد وتحويل الموت إلى حياة، من قوة الفداء الذي أكمله المسيح من أجلنا بموت الجسد، ثم انتصاره على الموت بالقيامة .

لذلك إذا انفصل العمل النسكي عن سر الإنجيل، أي القيامة، لحظة واحدة فهو لن يزيد عن فعل إماتة مجردة وحسب؛ ولن يؤول إلى حياة أو تجديد، بل يبقى فعل تطهير بحسب الناموس كمعمودية يوحنا أو أقل.

لذلك، فإن العمل النسكي الذي يتممه الإنسان على أساس سر الفداء الذي أكمله المسيح، والقيامة التي حققها لنا في الجسد، يُعتبر من صميم الإيمان، حيث يشكل الرجاء في العمل النسكي عنصراً جوهرياً. حينئذ لا يُحسب بعد كعمل بشري أو تمرين جسدي، بل يصير عملاً روحياً قائماً على أساس الفداء وملتزماً بالوصية الإلهية، أي يُعتبر عمل إيمان ورجاء بالحياة. أي أن النسك في الكتاب المقدس هو من صميم عمل الإيمان والرجاء، لذلك مهما بدا الكتاب المقدس صارماً في التوجيه إليه والحض عليه، ومهما بدت التضحيات والإماتات الجسدية جسيمة، فإن العمل النسكي يظل يحمل في أعماقه قوة الفداء وعطية الحياة الأبدية.

العمل النسكي في حقيقته يخدم التحول

من حياة حسب الجسد حياة حسب الروح:

تلازم الموت والحياة معاً في العمل النسكي، يشرحه الكتاب المقدس أنه، في حقيقته، عملية تحوّل من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، باعتبار أن العمل النسكي في الكتاب المقدس هو تفاعل حي بين الخليقة الجديدة السماوية والجسد الترابي الواقع تحت سلطان الخطية وحتمية الغريزة واضطرار الطبيعة، أي هو عملية واحدة ظاهرها الصرامة النسكية وجوهرها النعمة، خارجها الإماتة، وباطنها الحياة. تنتهي على مدى الزمن بانتصار الجوهر على المظهر «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة» (رؤ ٢١ : ١).

بقدر ما ينجح العمل النسكي في التحول من الجسد للروح،
ترفع الدينونة:

والكتاب المقدس يعتبر أن انفلات الإنسان من الحياة حسب الجسد والعالم إلى حياة حسب الروح في المسيح، يحقق للإنسان عبور الدينونة منذ الآن، فيرفع عن الإنسان ثقل الإحساس بالخطية ودينها مع كل قضاء الموت ورعبه، «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو ٨ : ١)، فيتحرر الإنسان منذ الآن من مذلة الخطية ومن عبودية الخوف من الموت. ولكن يا لتعاسة العمل النسكي إذا كان بدون تفاعل حي مع الروح والخليقة الجديدة

السماوية ومؤازرة النعمة، فإنه يزيد ثقل الضمير ويمركز الإحساس والتفكير كله حول الخطية، وإذ يزداد هول الخطية من جراء الفشل الجسدي يزداد رعب الموت بالضرورة.

آلام النسك تصبح بالنهاية ذخيرة حريّة وراحة واستنارة:

فالعامل النسكي في الكتاب المقدس، إذا أخذ على أساس أنه تفاعل حي مستمر بين الخليقة الجديدة السماوية والجسد الترابي الواقع تحت ناموس الخطية، يصبح عملية تحرير مستمرة من عبودية الخطية والموت، وتحوّلاً في كيان الإنسان لينحاز كله إلى الله، وبالتالي يصبح تجديداً لهيئة العالم بالنسبة للإنسان، كحالة قيامة داخلية، تمهيداً وإعداداً للانتقال الكامل إلى ملكوت الله.

أما هذه الإماتات المتعددة والضعف والعوز والمرض، هذه التي يحملها الجسد كآثار للعمل النسكي والجهاد ضد الخطية، تصير له بالنهاية علامات انتصار وراحة وسلام شبيهة بآثار الصليب، «سمات الرب يسوع» (غل ٦: ١٧)، مماثلة لآثار المسامير والحربة والشوك، كختم عِثْق وحرية وإراحة من ألم الخطية وأتعاب الجسد وجذب الغريزة وإلحاح الشهوة وكذب العالم: «لا يجلب أحد عليّ أتعاباً فيما بعد لأنني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غل ٦: ١٧)، وكأننا جروح المعركة تصير بالنهاية معمودية يصطبغ بها الإنسان فيكف عنه ألم الموت. «لا يسود عليه الموت بعد» (رو ٦: ٩)!

الكتاب المقدس يشدد أن العمل النسكي، إن كان معمولاً

بالروح، فهو اقتناء فعلي للحياة: «إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨: ١٣)! الإنسان الروحي يقتني بالإماتات الظاهرة والباطنة ذخيرة حياة لا تزول، حينما يكون عمل النسك هو فاعلية نعمة. فالسهر والصلاة والدموع والتقشُّف والصوم والحرمان والفقر والعفة وقطع المشيئة لله، حينما يقتنيها الإنسان فهو يقتني النعمة في صورة نسك، أو يقتني الحياة في هيئة إماتة، أو يقتني النور والراحة في هيئة حرمان وحزن.

هذا هو الزيت الذي "اقتنَّيه" الخمس العذارى الحكيمات بالدموع (مت ٢٥)، لم يذهبن لِيَتَّعْنَهُ من الخارج كالجاهلات، ولكنهن اقتنينه بالنعمة، أي بالروح، مع الجهد والمعاناة يوماً فيوماً داخل آنية أجسادهنَّ الضعيفة. الزيت المبتاع شيء والزيت المقتنى شيء آخر؛ الزيت المشتري لم تؤهَّل صاحباته للدخول، لأنه ليس من اقتناء الروح والنعمة.

النسك الروحي، «إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد». في الكتاب المقدس، بمثابة اقتناء زيت الاستعداد الذي يحمل فيه الإنسان سر مجيء الرب، إذا اقتناه أحد في آنية جسده فهو يكون دائماً متأهباً مستعداً كمن اقتنى قيامة حاضرة، فمهما أصاب الجسد من تعب وضعف وقصور، ومهما دبَّت فيه الأمراض وعلامات انحلال الموت، تجده شجاعاً ينتظر ساعة الدعوة وأذنه مرهفة لسماع صوت العريس.

العمل النسكي زيت ابتهاج يقتنيه الإنسان قطرة قطرة كعصير

النعمة. إنه ذخيرة حياة مفرحة يعبر بها الإنسان ساعة الموت الرهيبة بانتعاش روحي، فلا يئن كمن لا يريد أن يخلع مسكنه الأرضي (٢ كو ٥ : ١-٩)، كإنسان غير مختص بسبب عمله غير المرضي أمام الرب، بل بالحري يفرح إذ يجد ثوب العرس مهيئاً للبس والأعمال مبيضة في دم الخروف (رؤ ٧ : ١٤).

العمل النسكي، كنور غلبة الحياة على الموت، يتقدمنا هنا على طول الطريق الضيق، حتى عتبة باب الدخول، ليبدد عنا وحشة الطريق وظلال تهديدات الموت.

الكتاب المقدس يشدد، أن لا يجزع الإنسان من الضعف الجسدي: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد» (لو ١٢ : ٤)، «إن كانت عينك اليمنى تعثر فاقلعها» (مت ٥ : ٢٩). الله لا يمتنع عليه أن يحيي الموتى ويشدد الحطّم، ولكنه يفضل دائماً أن يعمل بقوته في الإناء الأضعف. ومهما أصاب الجسد من عوز أو هزال أو مرض، فلن تعطل هذه كلها قوة الله من أن تبلغ أوج عملها وكمالها في الإنسان «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل» (٢ كو ١٢ : ٩). إن سر قوة الإنسان في الكتاب المقدس، ليست في صحة الجسد أو في حكمة العقل ورزاقته أو في قوة الإرادة ومضاء العزيمة؛ ولكن سر قوة الإنسان المسيحي تكمن دائماً أبداً في اقتناء النعمة «تكفيك نعمتي». والكتاب المقدس يضع قوة الله رهن كل ضعف بشري يصيب الإنسان من أجل الله، حيث تزدهر قوة الله في الضعيف والمنسحق والمكسور، وتكمل عملها وراحتها فيه أكثر من ربوات

قوات بشرية.

شرط النسك الإنجيلي الذي يجعله مقبولا لدى الله:

+ «وأما أنت فمتى صُمت لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي

في الخفاء».

+ «ومتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك

الذي في الخفاء» (مت ٦ : ١-٨).

العمل النسكي منظور إليه في الكتاب المقدس أنه عمل سري، كفعل عبادة تتممه النفس في الخفاء، حينما تسكب ذاتها سكيناً أمام الله. ولكن الطبيعة البشرية أفسدت الخفية وجعلتها في حالة نقص وعوز، لذلك أصبحت ميالة إلى التأله الكاذب تطلب التكامل وتسعى دائماً أن تتمجد بأعمال الألوهة. ولأن النسك في جوهره تسامي فوق الطبيعة البشرية وإعلاء بالغرائز ونزوع إلى التكامل، لذلك فهو أنسب الأعمال للنفس المنحرفة لترتاح فيه وتحقق به وجودها الذاتي التألهي بين الناس، والناس بدورهم، إذ يعظمون العمل النسكي جداً ويكرمونه في حد ذاته، يُسهّلون بمدحهم الطريق إلى الانزلاق أمام النفس التي تشتت الكرامة والتمجيد، لكي تتبارى في إتقان الأعمال النسكية والتمادي فيها، لتزداد وجوداً عند ذاتها ويتضخم فيها "الأنا"، حتى يصير قريباً من درجة الألوهة. مع أن العمل النسكي، في حد ذاته، عمل إماتة وإخلاء، وهو أصلاً قدرة موهوبة للإنسان ليتغلب بها على ذاته المتعظمة، ليغنيها حينما يياشر قمعها وضبطها في الخفاء سرّاً أمام الله، على أساس تسليمها الكلي

الكتاب المقدس يضع الإنسان الناسك موضعاً حرجاً أقصى ما يكون الحرج، حينما يشتهر عمله بين الناس ويصير له مديح وكرامة في العالم، حيث ينتهي - على حد قول الكتاب - كل أجر له عند الله، أو جزاء روحي من أي نوع. والإنسان غالباً مسئول في ذلك ... «قد استوفوا أجرهم» (مت ٦ : ٢).

الكتاب المقدس لا يغفل نقص الإنسان وعَوَزَه الروحي ونزوعه إلى الكمال الحقيقي، لذلك لم يجعل العمل النسكي ضرورة مطلقة - في حد ذاتها - يحتمها الله دون أن يكون لها نتيجة مباشرة على طبيعة الإنسان الناقصة النازعة إلى الكمال، بل حدّد لها جزاءً واضحاً ومباشراً «أبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية» (مت ٦ : ٤). أي أن الله الذي غرس العمل النسكي في طبيعتنا كنزوع إلى الكمال، أمّن للإنسان أن يبلغه حتماً في ظل الوصية الأمانة، إن التزم الإنسان بشروطها الإلهية الصارمة: «في الخفاء».

جزء ١، النسك غنى روحي:

وما هو جزاء الله؟ «كنت أميناً في القليل، فأقيمك على الكثير» (مت ٢٥ : ٢١). هكذا يحقق الله للإنسان التكامل، لا من القلة إلى الكثرة حسب ظاهر الآية، وإنما الانتقال من الاعتبارات الجسدية المؤداة بالنسك، إلى الاعتبارات الروحية الموهوبة بالنعمة، لأن القليل يشير دائماً إلى الجسديات والكثير يشير إلى الروحيات .

والإنسان بمجرد أن تنجح نسكياته وتقبّل صلواته، يدخل في مجال

الروح فتتحل عنه كل إحساسات النقص والعَوَز التي كانت ترزح تحت ثقلها الذات البشرية متململة، تتلمَّس التعويض المادي بين الناس. إن مجازاة الله لا تعادلها مجازاة العالم كله، الله لما يُغني الإنسان بالروح، يكف عنه الإحساس بالعَوَز الجسدي. وعندما يهبه الاستنارة ومعرفة الحق، لا يعود يطلب مجد العالم، ولا يحزن لظلم العالم، ولا ترتاح ذاته إلا في التسليم الكلي لله .

والله لما يجازي علانية، لا يكون كالعالم الكذاب الذي يُشهر أعمال النسك ليوقع أصحابها في المجد الذاتي والمديح الباطل؛ علانية الله محصنة بنار الروح القدس، ومجازاته غير خائبة البتة وهباته بلا ندامة: «صلواتك وصدقاتك سعدت تذكراً أمام الله» (أع ١٠ : ٤).

العمل النسكي في الكتاب المقدس هو سر القليل المؤدي إلى الكثير، هو طريق ضيق على الطريق يختصر السبيل إلى الباب المؤدي إلى الحياة، هو جهد الخفاء الذي نسرق به المجازاة خلصة، ونؤمن أنفسنا ضد أباطيل الدنيا.

(انتهى)